ثقافة المسلمة

بناءً وأداءً

تأليف
الدكتور عبد الرحمن بن زيد الزنيدي
الأستاذ في كلية الشريعة بالرياض

دار الفضيلة

ثقافة المسلمة
بناءً وأداءً

بسم الله الرحمن الرحيم

ثقافة المسلمة

بناءً وأداءً

تأليف
الدكتور/ عبد الرحمن بن زيد الزنيدي
الأستاذ في كلية الشريعة
بالرياض

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

دار الفضيلة للنشر والتوزيع
الرياض ١١٤٣٣ - ص . ب ١٠٣٨٧
تليفاكس ٢٣٣٣٠٦٣

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله محمد، وعلى آله وصحبه وبعد:

عايشت المرأة المسلمة في مجتمعات المسلمين خلال القرن الهجري الماضي ـ وبالذات نصفه الأخير ـ بصفتها جزءاً من هذه المجتمعات تغيرَ الأجواء، وتقلبَ الأحوال، وتأثرت بذلك كسائر عناصر هذه المجتمعات بل لعلَّها من أكثر عناصر المجتمع تعرضاً للتأثر.

ولقد كان المجتمع السعودي ـ بحق ـ أكثر مجتمعات المسلمين تماسكاً تجاه التغير ـ في قضية المرأة بالذات ـ. وإنِّي لأتذكَّر واقع أمَّهاتنا المجاهدات ـ من جيل النصف الثاني من القرن الرابع عشر ـ فأذكر أن الواحدة منهن تحمل من الثقافة الشرعية ما لا يحمله بعض ذوي الشهادات في هذه العقود.

كانت هذه الثقافة ثمرةَ الحرص على معرفة أمور الدين الذي يمثل كل شيء في حياة المرأة؛ بل حياة المجتمع كله آنذاك، والملازَمة الدائبة لمجالس الذكر، والقراءة في البيوت، والمساجد، حتى إن منهن من كُنَّ يستأجرن الفتيان العارفين بالقراءة للقراءة عليهنَّ.

ولقد تمثلتْ هذه الثقافة لديهن في معرفة واسعة ـ وإن لم تكن عميقة ـ للأحكام الشرعية؛ خاصة في العبادات، والمواريث، والآداب الاجتماعية.

كما تمثلتْ في بُعد نظر، وحسن سياسة لوضعها الاجتماعي، ووعيٍ بالواقع الذي تعيشه ـ وهو على كل حال محدود بحدود قريتها أو منطقتها ـ وعياً يؤهِّلها لاتخاذ مواقف راشدة تجاه أحداثه.

كما تمثلتْ ثقافة الأمهات في حسٍ إيماني مرهف يتبدَّىٰ في شخصية المرأة، ومواقفها من شئون الحياة المحيطة بها؛ خاصة ما يتعلق بها وبأولادها، وأسرتها، اندفاعاً في طرق الخير، وإسهاماً فيها، وحذراً من الفساد، وانفعالاً تجاه أي صورة منه يستحدثها ابنٌ، أو بنت، أو زوج، أو قريب.

ولهذا كانت عملية التربية للأولاد في تلك الأحوال متركِّزَة على المرأة أكثر من الرجل، لا لغير المميزين من الأطفال؛ بل وللميزين والبالغين، وهذا ما يغفل عن الانتباه له كثير من الدارسين.

هذا هو التمثل الثقافي الذي نتذكر صُوَرَهُ لأمهاتنا؛ رغم أن غالبهن لا يقرأ، ولا يكتب.

والمجتمع الإسلامي ـ ومنه مجتمعنا السعودي ـ لا محيص له من مداخلة العالم المتقارب المتفاعل مما يجعله ينفتح على مجتمعات تغيض بألوان من الثقافات تصطرع فيما بينها، ومسلمة اليوم القارئة الكاتبة تتخطفها هذه الثقافات فيما تقرأه من كتب ومجلات، وما تشتريه لبيتها ومطبخها من أثاث، وما تلبسه من أزياء.

مع فقرٍ في ثقافتها الخاصة التي لم تنل منها في بيتها، أو مدرستها إلا لمامات.

لذا فإن مسلمة اليوم ـ بوجه عام ـ في محنة، تعاني منها نفسيا، واجتماعيا؛ نتيجة الخلل الذي حدث لها في ميدان الثقافة. ومن ثم فهي بحاجة ماسّة إلىٰ ترشيد وتسديد، ويحفظ لها توازنها الثقافي والتزامها الشرعي مع أداء إيجابي لمهمتها في هذه الحياة.

وفي هذا البحث القصير[1] سأتناول بعض المسائل المتعلقة بالمسلمة من الزاوية الثقافية، متوخياً مداخلة الأوضاع المعاصرة التي تعيشها غالب المسلمات علىٰ النحو التالي:

- **مداخل في تعريف الثقافة.**
- **المسألة الأولى: الواقع الثقافي للمسلمة في هذا العصر**، وفيه نقطتان:
  - ـ التيارات المؤثرة علىٰ المسلمة.
  - ـ من صور التحدي الذي تواجهه المسلمة.
- **المسألة الثانية: ركائز البناء الثقافي للمسلمة.**
- **المسألة الثالثة: المسئولية الثقافية للمسلمة**، وفيه نقطتان:
  - ـ عناصر المسئولية الثقافية.
  - ـ منهج تحقيق المسئولية الثقافية.
- **المسألة الرابعة: حقيقة المرأة في المنهاج الإسلامي**: [وتتضمن هذه المسألة

(١) هذا البحث خلاصة اهتمام بموضوع المرأة، حيث شاركت بورقة عن «المرأة في المجتمع الإسلامي» بمؤتمر في البرازيل عام ١٤١٥هـ، وقبله في عام ١٤١٤هـ تناولت في مجلة «الدعوة» هذا الموضوع في ست حلقات نشرت تباعاً.

تأكيداً على مقررات «القرآن الكريم، والسنة المشرّفة» التي تمثل أسساً لثقافة المسلمة؛ لأن هذه المقررات تكاد تهتز لدى بعض المسلمات، نتيجة التشويه المركَّز عليها من قِبَل أعداء الإسلام أو الجاهلين من أبنائه].

والله الموفق وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

★ ★ ★

مدخل

مدخل

مفهوم الثقافة

للفظة «**الثقافة**» في اللغة العربية معانٍ، من أبرزها:

أ ـ تقويم الشيء.

ب ـ وضبط المعرفة المتلقاة بنوع من الفطنة.

قال ابن فارس: «الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة يرجع إليها جميع الفروع وهو: إقامة وردّ الشيء.

ويقال: (رجلٌ ثَقْفٌ لقِف) وذلك أن يصيب علم ما يسمعه على استواء»[1].

ومن هذين المعنيين يتكون مفهومها المعاصر الذي يقع على التفوق الفكري والتهذيب الخلقي والسلوكي الذي به يتميز الإنسان عن الحيوانات.

فالثقافة تختص أساساً بالمعارف الخاصة بالإنسان من حيث هو إنسان، دون المعارف المتعلقة بالمادة والمشاعة بين البشر، المشتهرة اليوم باسم العلم.

فإذا تساوت مواقف الناس وجهودهم وثمرات جهودهم في دراساتهم المادية فيزياء، وكيمياء، وهندسة، وفلكاً... إلخ، فإنهم في مجال الثقافة متمايزون، كل أمة لها ثقافتها الخاصة بها، إسلامية، أو نصرانية، أو يهودية، أو شيوعية، أو غيرها.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ١/ ٣٨٣.

وغالباً ما تنزع كل ثقافة من الثقافات إلىٰ كتاب، أو عدد محدود من الكتب المقدسة لدىٰ أتباع تلك الثقافة، عنه تصدر وإليه تعود، ويمثل رمز الوحدة لها عند التفرق والاختلاف، كما هو مشهود في دنيا الواقع.

والثقافة للأمة، أو للفرد من أتباعها تمثل سياجاً يحوط شخصيته في جوانبها المتعددة:

- تصوراته العقدية عن الوجود والكون والحياة والإنسان.
- وصِلَتَه بإلهه الذي يعبده، وصفات هذا الإله وعلاقته بخلقه.
- وأخلاقه الاجتماعية التي يتعامل بها مع الناس من حوله.
- ونظمه التشريعية التي تجري عليها حركته في هذا الكون في شئونه الاقتصادية والسياسية والعمرانية ونحوها.
- حتىٰ المعارف المادية البحتة وتطبيقاتها تحكمها ثقافة الإنسان، توجُّهاً إليها، وارتساماً للغايات العملية من ورائها، وتوظيفاً لها في الميدان الإنساني.

هذه هي عناصر الثقافة، تختلف مضامينها من أمة إلىٰ أخرىٰ بحسب المصدر التي استمدت منه.

والثقافة الإسلامية هي هذه العناصر الخمس مستمدة من الكتاب العزيز والسنة المطهرة؛ سواء كان استمداداً مباشراً، أو من خلال وساطة عقول المجتهدين المؤهلة لاستنزال مطالب الحياة البشرية من الأحكام الشرعية من تلك النصوص.

وينبغي أن نعي أن الثقافة الإسلامية لا يحقق تَمَثُّلَها الصحيح في المسلمة أو المسلم، فيكون مثقفاً بمعنىٰ الكلمة إلا إذا وعىٰ ـ فكرياً ـ ما جاء به

الإسلام في تلك الجوانب المشار إليها؛ خاصة منها ما لا غنى للمسلم عنه في قيام إسلامه ممَّا هو معلوم من الدين بالضرورة.

ولكن المعرفة الفكرية لا تُغني شيئاً، ما لم تكن مشاعره متفاعلة معها، مطمئنة بها، بأنْ يخفق قلبه حين يستعرضها فكره، متذوقاً حلاوتها، مستعذباً كل جزئية منها.

وأخيراً أنْ تنطبع شخصيته بها انطباعاً كليًّا، فتصبح هذه الثقافة عنوان شخصيته التي يعبر عنها في آرائه وحركاته ومعاملاته ودعوته. وهذه ثمرة النقطتين السالفتين.

وهذا المستوى هو ما عبّرت عنه عائشة ـ رضي الله عنها ـ في وصف الرسول ﷺ حين قالت: «**كان خُلقه القرآن**»(١).

وما جاء في قوله سبحانه: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾(٢).

وهكذا بامتزاج هذه العناصر الثلاثة في الشخصية الإنسانية تتحقق الثقافة الإسلامية في قمة فاعليتها.

وتمثل هذه الثقافة روح تلك الشخصية؛ ولذا فإن النقص في بناء هذه الثقافة يمثل هزّاً لركن تلك الشخصية، وكلما عظم نقص تلك الثقافة زاد ذلك في تضاؤل شخصية الحامل لها، حتى يفقدها تماماً(٣).

---

(١) رواه مسلم وغيره. انظر: صحيح مسلم «صلاة المسافرين» ١/ ٥١٢.

(٢) النساء: ٦٥.

(٣) ولهذا وصف الله هداه بالروح ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وبيَّن أن به حياةَ الإنسان المعنوية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

التمايز الثقافي بين الرجل والمرأة:

الحق أنه ليس هناك تمييز قاطع بين ما هو للرجل وما للمرأة من الثقافة؛ خاصة الشرعية منها، ومع هذا فإن المرأة أكبر احتياجاً من الرجل بحكم أن عامة ما يحتاج إليه الرجل تشترك معه المرأة فيه، ثم تنفرد هي باحتياجات أكثر من الرجل، بحكم أنها تطبيقيّاً أكثر من الرجل في تعاملها، وتربية النشء، والعيش الاجتماعي مع المحيط الأسري، ممَّا يُمْكِن للرجل أن يتنصل منه.

هذا فضلاً عن اختلاف الطبيعة الجسمية، والاجتماعية بين الرجل والمرأة مما يعني شيئاً من التفاوت في الثقافة العامة.

من وجه آخر: فإن ميدان الثقافة في واقع المرأة ينفرد بإطارات كثيرة لا توجد في عالم الرجل، مثل: الطبخ، والأزياء وسائر متعلقاتها الخاصة، التي صارت تلابسها الثقافات الغازية؛ كي تتسلل إلى المسلمة من خلال كتاب طبخ أو كتالوج أزياء، أو مواصفات زينة وتجميل.

وقد جاءت نصوص شرعية كثيرة مختصة بالمرأة توجيهاً لها نحو عمل، أو بياناً لحكم خاص بها[1].

★ ★ ★

(١) جمع ذلك: صديق حسن خان في كتاب بعنوان: (حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة).

المسألة الأولى

الواقع الثقافي للمسلمة في هذا العصر

وفيه نقطتان:

- التيارات المؤثرة على المسلمة.
- من صور التحدي الذي تواجهه المسلمة.

المسألة الأولى

الواقع الثقافي للمسلمة في هذا العصر

النقطة الأولى: التيارات المؤثرة على المسلمة:

وقعت المرأة المسلمة في كثير من مجتمعات المسلمين في العصر الأخير نهباً لتيارات عدَّة:

- تيارٍ اجتماعيٍّ موروث، للمرأة فيه وضعية معينة ومقام معين، ودور محدود بالأعراف المتوارثة.
- وتيارٍ عاصف تهب رياحه من الغرب، يسوقه أعداء الدين من أبناء المسلمين وغيرهم، يصيح بالمرأة: (أنْ حطمي وضعك الذي عشت عليه، واهتكي الأستار المضروبة حولك، واخرجي إلينا لتري الضياء الذي حُجِبت عنه دهوراً، تحرري من هيمنة الرجل، تَفلَّتي من قيود الفضيلة، ابرزي بخلعك الحجاب، افرضي وجودك وصوتك بخروجك من البيت، متِّعي نفسك بأخذ حظك من كل مغريات الحياة، لا يحكمك سوىٰ ذوقك المتحرر، تاجري بأنوثتِكِ الساحرة علىٰ غلاف الصحف ومسابقات الجمال وعروض الأزياء والتمثيل!).

أفقراً فتاة العُرْب والحسْن مغنم ... وطهراً وهذا العصر عصر تمتع

لقد كان عهدٌ للفضيلة وانقضىٰ ... وأبدعَ هذا العهـد أمراً فأبدعي

- وتيارٍ ثالث برز أخيراً يقول: (أيتها المرأة تعقلي فأنتِ مسلمة، تعلمين أن

مصلحتك في أن تأخذي بأمر ربك، وأنه أعلم بما ينفعك من نفسك، وقد أنزل لك توجيهات خذيها ففيها النجاة، وكل ما يسوقونك إليه؛ سواء كانت أعرافاً قديمة، أو مكائد حديثة، ينبغي أن تَزِنيه بهذا الميزان؛ فتقبلين، أو ترفضين).

وقد تشرذم كثير من النساء في مجتمعات المسلمين بحسب قوة التيار في مجتمعها الذي تعيش فيه.

- هناك من بقين على الوضع السابق؛ وخصوصاً في الأرياف البعيدة عن المدن يَحْكُمُ وضعَهن العرفُ الاجتماعي الموروث، وكثير من أموره مستمد من الإسلام، كالعفَّة، وقوامة الرجل، وتحمله المسؤولية المادية للأسرة . . . ونحو ذلك.

ونشأ منهن ناشئة أخذت سمت أمها، وذويها، تقليداً لا اقتناعاً ولا إيماناً، وقد تكون متعلمة تعليماً عامًّا لا شرعيًّا، وهذه سرعان ما ينكشف حالها حينما تنتقل إلى غير مجتمعها المحافظ فتخلع الحجاب، وتركب رأسها.

- وهناك المتأثرات بتيار الفساد بمجلاته وكتبه ودعاته وأفلامه وسائر وسائله، تجد الواحدة منهن قد ضربت بتعاليم دينها عرض الحائط، وتجاوزت طور الاستحياء إلى معاندة الشرع؛ بالتبرج، والاختلاط، والتقحم في الميادين الخطرة بالنسبة للمرأة، كالتمثيل، والغناء، والرقص، وألوان الفنون التي لا تليق بإنسانة تحترم إنسانيتها، فضلاً عن إسلامها.

- وهناك القلقة بين قيمها التي ورثتها، ودينها الذي له بقايا في فطرتها،

وبين موضة العصر الفاتنة ماديًا وفكريًا واجتماعيًا.

- وهناك الواعية التي آمنت بالإسلام والتزمت بتعاليمه بوعي وإرادة ذاتية، ثم حملتها الغيرة نحو إصلاح بنات جنسها وهي تواجه المغريات والضغوط[1].

والحق أن المسلمة عاشت فترة اختناق حَرِجة في كثير من مجتمعات المسلمين التي هجمت عليها المدنية الغربية.

فقد ركزت هجومها على المرأة المسلمة من خلال ما يسمى بالثقافة النسوية التي تشمل ما أُدخِل على المرأة من أدب، وفنون، وصور إغراء متنوعة، في الكتب، والمجلات، والأفلام، والإذاعات، والرسم، والتمثيل، والتدريس.

وصوروا للمرأة أنها بهذه الثقافة تحقق ذاتها، فصارت تَعُبُّ منها، وبالتالي تبتعد عن الإسلام بصفته المقابل ـ لتلك الثقافة ـ الذي يفقد النصير الواعي المؤثر.

ولكن فطرتها بدأت تتحرك تحت هذا الركام الثقيل، وصارت تتحسس خطاها، ثم أصابها القلق والشعور بالضياع.

وقارنَ هذا التحركَ الفطريَّ إشراقُ الصحوة الإسلامية العامة في بلاد المسلمين، حيث امتدت أشعتها إلى تلك الفطر الظامئة، فأشرقت، وبدأت في الإفاقة، وعرفن أن سبب القلق والضياع هو إعراضهن عن خالقهن

---

(١) هذه الوضعية بأنماطها تعبر عنها نماذج فردية من النساء، كما تعبر عنها صحف أو مجتمعات، وقد يجد الباحث تفصيلاً أكثر في الصحف والكتابات لأنماط المرأة.

ومنهجه، ونما هذا الشعور لديهن فتوجهن إلى الدين لائذاتٍ بحماه.

ورأين أن طريقهن للالتزام بالدين هو تكوين ثقافة إسلامية، من خلال القراءة في الفكر الإسلامي، ولكنهن نتيجةً لقلة القيادات التوجيهية، أو للشعور بعدم الحاجة إلى توجيهها صارت كثيرات منهن تلتهم كل ما يصادفها مما ينتسب إلى الفكر الإسلامي.

وهذا لا ريب مسلك خطير قد تكون له عواقب وخيمة[1].

وبعد شعورهنّ بالتحصيل تَوَجَّهْنَ للحركة بما يحملْنَ من ثقافة تكونت من ذلك الخليط لتعليم هذه الثقافة؛ حيث يأخذها منهن أخريات يحملن نفس البذور. . . وهكذا.

ومع أن جو الفترة التي نعيشها تبشر بخير مرتقَب للمسلمة، رجوعاً إلى الدين، والتزاماً بما يدركن من تعاليمه، وحملا لهمِّه في دنيا الواقع، خاصة في المحيط النسائي، إلا أن المسلمة ما زالت تعاني تحدّياً في واقعها تعبر عنه نماذج فرديّة من النساء، كما تعبر عنه صحف أو مجتمعات.

★ ★ ★

(١) خاصة وأن رواج الكتاب الإسلامي جعل الكتابة في موضوعات إسلامية أو على الأقل العنونة بها وسيلةً للظهور، أو الكسب، من قبل أناس لا يعون من الإسلام ما يؤهلهم للكتابة عنه.

النقطة الثانية: من صور التحدي الذي تواجـه المسلمه:

١ ـ النقص في وضوح التصور الإسلامي:

يتجلىٰ هذا في الصُّورِ المشوشة للإسلام في حياة كثير من المجتمعات الإسلامية، حيث تُنْسب بعض الأعراف والصور الاجتماعية الخاطئة إلىٰ الإسلام؛ خاصة في قضايا المرأة وموقعها في المجتمع.

كما يتجلىٰ ـ وهو الأخطر ـ في الانحرافات العقدية في شؤون الألوهية والكون والحياة، مما يجعل التدين والدعوة القائمين علىٰ تلك العقيدة الناقصة مصابَين بخلل، قابلَيْن للانهيار نتيجة أساسهما الهار.

٢ ـ موقع المرأة الاجتماعي في علاقتها بالرجل:

من حيث الموقف السلبي من الرجل تجاه أسرته حيث يترك بيته، ويهمل أولاده، ولا يأبه بحاجات امرأته في جهودها داخل البيت، وعلاقتها مع الآخرين. وهي جهود ضخمة، وعلاقات ذات حساسية؛ خاصة مع أهله وجيرانه ـ مثلاً ـ فإذا لم يكن الرجل واعياً بها، إيجابياً في الارتقاء بها، ومساعدة المرأة علىٰ احتوائها، فإنها تكلِّف المرأة كثيراً، إرهاقاً نفسياً، وتشتتاً فكريًّا، واضطراباً في فاعليتها وتعاملها.

وقد تبلغ السلبيَّة مداها لدىٰ بعض الرجال المستهترين، الذي لا ينظرون إلىٰ المرأة إلا من خلال جسدها ـ فقط ـ بل مواقع محددة في هذا الجسد تكون لديهم معيار الصلاحية وانتهائها، حيث يتم تغيير المرأة بسهولة بحسب ذلك المعيار.

لكن الصورة ليست محصورة بهذا الوجه، فقد يكون لها وجه مقابل في

المجتمعات التي سَحبتْ صلاحياتِ الرجل وقوامته لحساب المرأة، فأنتج ذلك إرهاقاً للمرأة التي لم تُهَيّأ بفطرتها لهذه القوامة ولذلك الموقع، ومن ثم ارتباكاً في حركتها.

٣ ـ البلبلة الفكرية:

والتي أوقعت الثقافات الوافدة المناقضة للفطرة، ولقيم المجتمع المسلم فيها المسلمة، حتى صارت لا تعي ماذا تريد؟، ولا أين تتجه؟، واختلطت أمامها المسالك حتى وقعت في تناقض رهيب، تمارس ما تنتقد، وتطلب ما تتوجه منه... إلخ.

خذ مثلاً: في مجلة ذات اهتمام نسوي تقول فتاة الغلاف ـ وهي مذيعة تلفزيونية ـ منتقدةً الفتاة المسلمة في تأثرها بالغرب: (الفتاة الشرقية تحررت أكثر من اللازم فهي تقلد الغرب تقليداً أعمى، ترتدي الزي القصير وترقص وتسمع الموسيقى الأجنبية).

ثم تقول عن هواياتها: (إنها تعشق الأفلام، وتشاهدها على الفيديو وترقص الباليه، وتقرأ القصص البوليسية)(١).

٤ ـ الإعلام:

بفنونه الكثيرة الذي يحمل ثقافةً محاربة للدين، مغيرة لشخصية المسلمة، ثقافةً تربي الأطفال على مسخ شخصياتهم والانحراف بفطرهم عن الحق؛ بل تصوغ المجتمع كله بعلاقاته ومطالبه.

---

(١) مجلة المجالس ٢٤/ ٧/ ١٤١٠هـ. وانظر: (المرأة العربية المعاصرة إلى أين؟/ ٧٢)، حيث ينقل مقالاً لـ «إلهام شاهين» في الأخبار المصرية تذكر فيه من خلال الرسائل صوراً للتناقض الذي تعيشه المسلمة في حياتها وفكرها. المقال بعنوان: (حيرتني حوّاء).

هذا الإعلام بوسائله المتنوعة، يشكل جواً ملوثاً يحيط بالمسلمة، وهي تتهادىٰ في طريق بناء نفسها، أو تقوم بتثقيف أولادها، أو تمارس الدعوة بين بنات جنسها في هذا الجو، مما يجعل حركتها صعبة متعبة كأنها سباحة في ماء طيني ثقيل.

٥ ـ الشعور الاجتماعي بأن ثقافة المرأة ـ خاصة إذا برزت بها كفاعلية مؤثرة ـ نقص في أنثيتها، أو في حسن تبعلها لزوجها، أو أن هناك اطّراداً عكسيا بين ثقافتها، وربيتها للبيت، بحيث أن ارتقائها الثقافي يكون علىٰ حساب المهارة في تقنية المنزل طبخاً، وغسلاً، وترتيباً.

وقد يكون لبعض المثقفات في مجتمعنا العربي دور في تصديق ذلك الشعور حينما تصبح الثقافة، أو حتىٰ الدعوة هوايةً تندمج فيها مهملة المطالب الرئيسة الأخرىٰ.

ولكن رغم قسوة التحدي الذي تواجهه المسلمة ـ والمشار إلىٰ بعض صوره ـ فإن مما يبهج النفس، ويملأها ثقة، وتفاؤلاً أننا نرىٰ أفواجاً من المسلمات يتخطين تلك العقبات، ويتعالين علىٰ المغريات الرهيبة متجهات بقوة نحو مرابع الإيمان ومناهج الهداية ليكُنَّ جزءاً من الصحوة الإسلامية المتنامية.

★ ★ ★

المسألة الثانية

ركائز البناء الثقافي للمسلمة

المسألة الثانية

ركائز البناء الثقافي للمسلمة

لئن ساغ للمسلمة في أزمان خلت ـ حينما كانت منعزلة في باديتها، أو مزرعتها، أو قريتها المحدودة ـ أن تكتفي بقدر باهت من معرفة أمور دينها وحياتها الضيقة، شاعرة بأن هذا هو ما تحتاجه، فإن الأمر في وقتنا هذا قد تغير كثيراً، حينما تضخَّمَ واقع المرأة في المجتمعات؛ منفعلة وفاعلة، فقد أخذت فرصتها كاملة، وحققت ذاتها كما تريد ـ حسب تعبيرات الصحافة النسوية ـ، درست وتوظفت وأدارت الأعمال، وأشرفت على مؤسسات اجتماعية، وجعلت من نفسها محطة استقبال لصنوف الثقافات البشرية من خلال القوالب النسوية في مسائل الطبخ والأزياء والصحة ونحوها، فضلاً عن التحديات الثقافية التي سبق ذكرها.

هذا التحول الشامل في وضعية المرأة المسلمة يقضي بضرورة أن تكون شخصيتها التي تتعرض لهذا التحول مبنية على ثقافة مكينة جامعة بين العمق الشرعي، والوعي الواقعي، حتى تكون هذه الثقافة كفيلة بأن تجعل المسلمة مستقيمة في نفسها إيجابية، مؤثرة في ميدان الحياة الاجتماعية بإسلامها.

وهي بدون هذه الثقافة العميقة الواعية، بين أمرين:

١ ـ إما الانطواء على الذات، واعتزال تيار الحياة، طلباً للنجاة، وهو أمر صعب وغير شرعي إذا ما أصبح اتجاهاً عاماً[1].

---

(١) لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، وفي الانطواء تعطيل له.

٢ ـ وإمَّا الارتماء بين أمواج الثقافة السائدة مجردةً من أي مجداف توجهُ به سيرها، مما يجعلها أسيرة متأثرة بتلك الثقافة حسنِها وسيئِها، وهو مسلَّم غير شرعي أيضاً(١).

ولا بد أن أنبه إلى خطأ تقع فيه بعض الأخوات وبعض الرجال ـ أيضاً ـ وهو: تصور أن الثقافة الإسلامية المطلوبة للمسلم لا تعدو انتماءه للإسلام باسمه، وهويته، ووالديه، أو أنها شعور بحب الله ورسوله في طوايا الضمير، أو أداء لبعض شعائر الإسلام صلاة وصياماً، أو إقحام لبعض النصوص الشرعية فيما يكتبه ويبحثه، أو تطرق لبعض الموضوعات التي تهم الإسلام والمسلمين.

أمَّا بعد ذلك، فإن واقع أعمالهم وكتاباتهم يدلُّ على ضعف في فهم الإسلام، ونقص خطير في التزامهم بتعاليمه. إن الوضع الصحيح للثقافة الإسلامية المطلوبة من المسلمة هو: أن يكون لديها زاد علمي شرعي، ووعي واقعي تنطبع به شخصيتها، بحيث أن الحركة التي تمارسها، والفكر الذي تكتبه، والتوجيه الذي تقدمه، والأهداف التي تطلبها، والوسائل التي تتذرع بها، والبواعث التي تحدوها تكون مستقيمة على منهج الإسلام، محققة المصلحة الشرعية الخاصة أو العامة.

وسأشير ـ بإيجاز شديد ـ إلى أهم ركائز البناء الثقافي للمسلمة:

---

(١) قال ﷺ: «لا يكن أحدكم إمَّعَة، يقول أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطِّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن لا تظلموا» رواه الترمذي، وهو حديث حسن. انظر: جامع الأصول ١١/ ٦٩٩.
ومقتضى الحديث أن يكون لدى المؤمن معيار يزن به واقع الناس، ليحدد حسنه من سيئه، وليس ذلك سوى الثقافة الإسلامية.

١ ـ تأصيل التصور الإسلامي الصحيح بصفته الركيزة الأساس التي يقوم عليها البناء الثقافي، ويتنامىٰ في ظل موجهاتها.

هذا التصور يشمل:

ـ ما يتعلق بالإيمان بالله وجوداً وربوبية وإلـٰهية وأسماءً وصفات وأفعالاً.

- وبأركان الإيمان الأخرىٰ.
- وبالقرآن الكريم والسنَّة المطهّرة، من حيث مقامها في حياة المسلمة.
- وبركائز الإسلام وخصائصه.
- وما يتعلق بالكون المحيط بالإنسان.
- وبالحياة في مراحلها وطبيعتها.
- وبالإنسان نفسه أصلاً ومصيراً وحكمةً، وجوداً، وصلةً بالموجودات الأخرىٰ[1].

وحتىٰ يكون هذا التصور ـ الأساسُ للبناء الثقافي ـ سليماً صحيحاً لا بد أن يتم تأصيله في وعي المسلمة، من خلال الاستمداد المباشر من الكتاب والسنة، دون وسائط الفكر البشري، فلسفةً أو علمَ كلام، إلا ما كان من فهم السلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ ومن أخذ بمنهجهم بحكم أنهم نموذج التلقي، والفهم السليم، لما جاءهم به الرسول ﷺ من

(١) توجد هذه العناصر مفرّقة ومجموعة في بعض الكتب، فينظر مثلاً:
ـ العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية.
ـ كتاب التوحيد، للإمام محمد بن عبد الوهاب.
ـ نظام الإسلام ـ العقيدة والعبادة، للشيخ محمد المبارك.

هدي لما امتازوا به من تلق مباشر منه، وسلامة في الوعي اللغوي، وصفاء في الفِطَر التي لم تلوثها الثقافات والفلسفات المدمّرة، التي حاقت بعقول كثير ممن جاء بعدهم.

وقد يتصور أناس أن هذا المطلب مثالي، أو أن فيه تتويهاً للمسلمة ـ ذات المستويات المتفاوتة ـ حينما أحيلها إلىٰ الأصول مباشرة.

وحسبي أن أقول: إن التصور الذي ترعرع في قلوبنا ونحن صغار من قراءتنا للقرآن في المساجد، ومما كنا نحضره مع ذوينا من مجالس تُقرأ فيها السنة الشريفة في مثل «رياض الصالحين» بقي هو التصور الأوضح والأرسخ من الدراسات اللاحقة المتعرجة يميناً ويساراً، والتي تُشتِّت الفهم بالخلافات، والافتراضات.

كما أن الغالبية العظمىٰ من الذين أسلموا بعد حياة كافرة مثقفين وغيرهم يُفِيدون بأن اطلاعهم علىٰ القرآن، أو قراءتهم لمعانيه، كان هو المفتاح الذي أضاء الوجود أمامهم، فتصوروه علىٰ حقيقته، وتبددت بتلك الآيات تصوارتهم الضَّالة السابقة(١).

كما أن هذا المنهج ـ اعتماد النصوص الشرعية في بناء التصور ـ هو النتيجة التي أعلنها كثير من العلماء بعد تجارب مريرة، تستهدف بناء تصور سليم عبر مناهج مغايرة، كما في قول الفخر الرازي: «لقد جربت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن»(٢).

---

(١) انظر: الكتب التي تنقل ظروف انتقال غير المسلمين إلىٰ الإسلام.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية ٥/ ١٠.

٢ ـ استكمال الثقافة الشرعية القائمة في علوم الإسلام الأساسية ـ علم التفسير، وعلم السنَّة، والفقه، والسيرة. . . بما يقيم في شخصية المسلمة بناءً ثقافيًا متماسكاً.

وليس هناك درجة محددة لمقدار المطلوب من هذه الثقافة؛ لأن ذلك يختلف بحسب مستوى المرأة الفكري، وطبيعتها، وظروف بيئتها، وموقعها في المجتمع، ولكن لا بد للمسلمة من الوعي بأمور أربعة في هذا الأمر:

أ ـ أن المنهج السليم هو أن تجعل المسلمةُ دليلَها في أخذ أي من هذه العلوم هو أصول ذلك العلم، التي تُكتب بمثابة مقدمة كما في أصول الفقه لعلم الفقه، وأصول التفسير للتفسير. . . وهكذا. وغالباً ما تشتمل على تعريف ذلك العلم ونشأته وفائدته، وأساسياته المنهجيّة، ونحو ذلك؛ ممَّا يُكَوِّن لديها تصوراً عامًّا أشبه بالخارطة الفكرية لذلك العلم. وهناك كتب مبسطة وموجزة نافعة في ذلك.

ب ـ ينبغي أن تجعل ما يختص بها بصفتها امرأة من تلك العلوم موطنَ تركيز دائم وتتبع مستوفٍ.

جـ ـ الثقافة الشرعية ثقافة حياة للإنسان وللأمة كلها، وبما أن دولاب الحياة دائر لا ركود فيه، فإن صلة المسلمة بهذه الثقافة ينبغي ألا تنقطع بل تبقى متعاهدة لها مستزيدة منها لترسخ بهذه الزيادة ثقافتها، ولتبعث في نفسها حيوية إيمانية وهي تتفاعل مع مستجدات الحياة. ومن الخطأ أن تتصور الأخت المسلمة أن حصولها على شهادة في العلم الشرعي، أو قراءتها في كتاب، أو

أكثر من هذه العلوم مبرر للانصراف عنها نحو مجالات أخرىٰ، والشعور بأن هذا الرصيد كافٍ لنجاح فاعليتها في حياتها المقبلة.

د ـ ومما يساعد علىٰ التواصل المطلوب مع الثقافة الشرعية، أن تهيّئ المرأة لها مرجعاً أو مرجعين ـ مثلاً ـ في كل علم من علومها تكون موثقة ومحققة وشاملة، تفهم طريقة المرجع، ومنهج ترتيبه للسائل، بحيث تجد نفسها متوفِّرَة للبحث فيها، والتحقق مما يعرض لها في دنيا الثقافة من خلالها.

٣ ـ العلوم الشرعية علومٌ انطلقت من الكتاب والسنَّة، وقامت لخدمتها، وكان عمادها اللغة العربية لغة القرآن والسنَّة، وما وجّها إليه من مسالك منهجية ذات رصيد فطري، ولهذا نمت تلك العلوم سريعاً، وازدهرت بأئمة عظام، قريبي العهد بزمن الرسول ﷺ، وصارت تلك الفترة المزدهرة مُعوَّل الأجيال اللاحقة، وهذا بحكم أن الزمن ليس عنصراً رئيساً(١) في تقدم تلك العلوم وازدهارها كما هو الشأن ـ مثلاً ـ في العلوم الكونية.

لذا، ينبغي أن يكون في حسبان المسلمة وهي تسعىٰ لاستكمال ثقافتها الشرعية أن تُعوِّل علىٰ ثمار تلك الفترة المزدهرة.

وليس المراد أن تنحصر، فيما ألفه العلماء بأسمائهم في العصر العباسي مثلاً. كلا.. إن المقصود أن تستمد زُبَد ما قدموا ولو من خلال علماء معاصرين لنا من الذين جمعوا الخلاصات في تلك العلوم، ورتّبوها، ثم

(١) هذا القيد لاستثناء ما تزداد به المعرفة البشرية لآيات الله القرآنية والتشريعية نتيجة ارتقاء المعرفة الكونية والإنسانية، كلما تقدم الزمن.

قدّموها بما يسهل على أهل هذا العصر فهمها واستيعابها[١]. ومع هذا فإني لا أعزف بالفتاة المسلمة عن الكتابات الثقافية للمفكرين الإسلاميين المعاصرين.

بل أرى أن القراءة في هذه الكتب ضرورية لاستكمال بنائها الثقافي، وبعث الحيوية فيه، بحكم أن تلك الكتب قد قُدِّمت صياغةً وترتيباً، وزوايا بحث من واقع هذا العصر الذي تعيش فيه المسلمة أحداثه الحيَّة. ولكن ينبغي للفتاة أن تكون على بيِّنة لما تقرأ ولمن تقرأ؛ لأن محيط الفكر الإسلامي أصبحت تموج فيه أشكال غير مأمونة، وكثر فيه الدخلاء غير الموثوقين، لهذا كان الحذر والتوقِّي ضرورياً لها، حتى لا تقع في شباك فكر ملوَّث، يَلْبِس الحق بالباطل، ويكتب عن الإسلام من خلال منهجية منحرفة[٢].

٤ ـ البناء الثقافي للمسلمة المعاصرة ليس محصوراً بالثقافة الشرعية وحدها. وإن كانت هي أساسه وقوامه، لكن المسلمة بحاجة إلى ألوان أخرى من الثقافة لا بد أن تأخذ منها قدراً كافياً ـ إن لم يك وافياً ـ في مجال التاريخ، واللغة، والأدب، والعلوم الإنسانية، والطبيعية، وما يتعلق بالتيارات الفكرية المعاصرة، مما يشكل عاملاً مهمّاً في إعلاء المستوى الفكري، ومن ثم البناء الثقافي لها، وفي إعطائها إمكانيات كبيرة تدعم فاعليتها في المحيط الاجتماعي، مربية وموجهة وداعية[٣].

---

(١) مثل ما كتبه المشائخ عبد الرحمن بن سعدي، محمد الصالح العثيمين، منّاع القطان، صبحي الصالح، محمد المبارك، عمر الأشقر . . . ونحوهم.

(٢) والحمد لله لقد استطاعت الجامعات الإسلامية ـ كجامعة الإمام، وأم القرى، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ـ القيام بدراسات كثيرة موثقة شرعيّاً وواقعيّاً حول قضايا الثقافة والاجتماع والدعوة ونحوها من خلال الأقسام العلمية فيها بالذات رسائل الماجستير والدكتوراه.

(٣) انظر فيما يتعلق بجوانب الثقافة الإسلامية في المسلم شرعية، وفكرية: ثقافة الداعية، د. يوسف القرضاوي.

ولا بد أن نعي في ظل هذه الفقرة أمرين :

أ ـ أنه لا يكفي للبناء الثقافي المطلوب مجرد التحصيل لشيء من هذا الثقافات إذا قامت على شكل جزر منفصلة عن بعضها في فكر المسلمة ؛ لأنها ـ وإن أصبحت بهذا جامعة أو موسوعية ـ إلا أنها لا تصبح بهذا مثقفة ـ بمعنى الكلمة ـ ما لم تهضم جميع تلك الثقافات، وتمزجها في شكلٍ بنَّاءٍ موحَّد، متماسك، تتجلى من خلاله شخصيتها ؛ في فكرها، وحديثها، وحركتها.

ب ـ أن من ضمن الثقافات المطلوبة للمسلمة، الثقافةَ الخاصة بها بصفتها امرأة، التي نسيتها الثقافة الوظيفية، وهي التي نظر من خلالها أو من خلال ما تعود إليه من طبيعة خاصة للمرأة عن الرجل من قال بضرورة تميّز المرأة عن الرجل في ثقافتها وتعليمها، مثل : الدكتور ألكسيس كاريل الذي يرى أنه لا ينبغي أن تتلقى الفتيات والفتيان ثقافة واحدة، ولا أن يكون لهم أسلوب واحد في الحياة، ولا مَثَلٌ أعلى واحد. ويرى أن جَعْل التربية واحدة للفتيان والفتيات فكرة رجعية وبَقِيَّةٌ من فترة ما قبل العلم في تاريخ البشرية ؛ نتيجة الجهل بتميز تركيبها العضوي، والعصبي، والعقلي عن الرجل، ومن ثم يؤكد ضرورة أن يكون لها ثقافة خاصة ملائمة لتميزها حتى تحقق تناسق ضروب نشاطها مع تكوينها الخاص، ووظيفتها الشرعيَّة[1].

(١) انظر : تأملات في سلوك الإنسان، ألكسيس كاريل، ص ٢٠٦.

هذه الثقافة الوظيفية تتمثل في المعارف المتعلقة بخصوصيات المرأة ـ سواء كانت متلقاة من الشرع، أو مستمدة من الفكر الإنساني، والتجربة البشرية ـ حملاً، وولادة، وأمومة، وحضانة؛ في التدبير المنزلي، وشئون الطبخ، واللبس، والأمراض، والأحوال المتعلقة بالمرأة.

وقد كثرت الكتابات العلمية والصحفية والبرامج والمناهج التي تهتم بهذه القضايا، حتىٰ شعرت كثير من النساء خاصة من الجيل الجديد بضرورة الوعي بهذه الثقافة، والارتقاء بنفسها، وبيتها من خلال الاطلاع علىٰ الجديد وتمثُّلِه في حياتها.

والمسلمة وهي تسعىٰ لكمالها الممكن، وتهدف إلىٰ تقديم المثال الإسلامي للآخرين، لا بد أن تواكب هذا اللون من الثقافة لتصبح ذات دراية بأنماطه وتحولاته التي لا تقف، وذات وعي بمنهج الأعداء في استثمار هذه الأنماط لخدمة مبادئهم والتسلُّل إلىٰ المرأة من خلالها، لكي تأخذ المسلمة المثقفة دورها في استثمار هذه الأنماط لصالح ثقافتها.

٥ ـ تعترض المسلمةَ وهي تبني نفسها ثقافياً مؤثراتٌ قد تعوق تكامل هذا البناء، أو تخلّ به، وتُحدِث ثغرات في جوانبه، أو تجعله متأرجحاً غير متزن، وهي مؤثرات كثيرة قد تعود إلىٰ شخصية المرأة، أو للبيئة التي نشأت فيها، أو للفكر الغازي للمجتمعات المسلمة.

وسأشير إلىٰ عدد من العناصر التىٰ أرىٰ ضرورة حضورها في ذهن المسلمة وهي تبني نفسها ثقافياً حتىٰ تكون مؤثرة في حركة هذا البناء:

أ ـ الإسلام ـ الذي تمثل ثقافته الشرعية أساس ثقافة المسلمة وقوامها ـ

يتمثل في نظام كامل متكامل، شامل لكل جوانب الحياة الإنسانية في شئون العقيدة، والإيمان، والعبادة، والأخلاق، ونظم الأسرة، والاقتصاد، والسياسة، والاجتماع البشري.

ولا بد أن تعي المسلمة وهي تبني ثقافتها استكمالها لجوانب هذا النظام بترابطها، ونِسَبِهَا الصحيحة التي أراد الله أن تتحقق بها حياة الإنسان، ولِيَكْمُل وجوده الممكن، ولْتحذرْ الأخت المسلمة أن تقع في خطأ ذوي الفهم الناقص للدين، الذين يأخذون بجزء، أو أجزاء من الإسلام، مغفلين أجزاء أخرىٰ منه، أو ربما مستهترين بها، أو حتىٰ الذين لا ينكرون شيئاً من جوانب الإسلام، ولكنهم لا يراعون النِّسب الصحيحة بين هذه الجوانب، فيُطْغون جانباً أو جوانب علىٰ حساب جوانب أخرىٰ، كإهمال الجانب الخلقي لحساب الجانب الفكري، أو التركيز علىٰ الجانب العلمي من الحياة الاجتماعية علىٰ حساب البناء الإيماني، أو النظام العبادي، ونحو ذلك.

ولقد ظهرت كتابات تنبه علىٰ ضرورة الوعي بهذا العنصر وخطورة تجزئة الإسلام أو إهمال بعض جوانبه الذي وُجِد في عصور الركود السابقة، ووجد لدىٰ بعض المحدّثين أفراداً، أو أحزاباً.

وممن كتب في هذا محمد المبارك في نظام الإسلام، ومحسن عبدالحميد في المذهبية الإسلامية، وغيرهم.

ب ـ ينبغي أن تكون المسلمة في ثقافتها متزنة في أخذها للثقافة حتىٰ لا تقع في أيٍّ من تطرفِ بعض الناس في هذا المجال:

•• تطرفٍ الذين يضعون تصوراً للثقافة المطلوبة؛ فيجعلونها محصورة في قنوات قليلة، وضغوطه في حدود ضيقة، ومن ثم يضربون صفحاً عمَّا وراء هذه الحدود، عازفين عن القراءة فيه، أو الاستفادة مما يتهيّأ لهم في نطاقه.

ومن السهل أن تجد طلاباً أو طالبات يهملون بعض المواد الدراسية التي تكون غنيّة بما ينفعهم علماً وديناً، بحجة عدم الحاجة إليها، أو ربما للشعور بالتأثم في صرف الوقت لها، مثل: مواد علم النفس، أو التاريخ، أو المذاهب... ونحوها.

•• وتطرفٍ مقابل لا يحوطه سياج ولا يضبطه منهجٌ في قراءته - ترى الواحد أو الواحدة من هؤلاء تتلقف كل ما يقع عليه بصرها من كتب، أو صحف، فهي كحاطب في الليل يضع يده على كل جرم يراه، عوداً كان أو ثعباناً. وهذا مسلك خطير للفتاة المسلمة، خاصة في فترة تكوينها الثقافي، حيث لم يتشكَّل بعد لديها المعيار النقدي الذي تزن به مقروآتها، والحقيقة أن الخطورة ليست محصورة بفترة التكوين؛ بل هي قائمة حتى بعد التثقف خاصة ونحن في عصر صراع فكري رهيب، وقد حذّر الرسول ﷺ المؤمنين إذا سمعوا بالدجال أن يذهبوا إليه اعتماداً على إيمانهم خوفاً منه ﷺ أن تتسلل فتنته إلى قلوبهم فتزلزل هذا الإيمان[1].

وعليه، فينبغي للمسلمة أن تأخذ موقفاً عدلاً بين هذين الطرفين، فلا

(١) اخرج أبو داود بإسناد صحيح أنه ﷺ قال: «من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه، مما يبعث به من الشبهات». انظر: جامع الأصول ١٠/ ٣٥٤.

تَحرِم نفسها مما ينفعها ولو لم يكن من أساسيات ثقافتها، ولا تكرع في كل مورد على غير بصيرة من أمرها.

هذا الموقف يقضي بضرورة أن تستعين المسلمة ـ خاصة الفتاة الناشئة ـ بأخواتها المسلمات من ذوات الخبرة والسبق والثقة في الدين والعلم والدعوة، أو بمن يتيسر لها الاستفادة منه من ذوي الوعي والصلاح حتى تكون خطواتها في بناء نفسها مأمونة مضمونة.

جـ ـ الثقافة الإسلامية ـ التي ندرسها هنا ـ هي أقرب ما يكون إلى مصطلح الحكمة الذي جاء به القرآن الكريم.

●● من حيث هي تعاليم، كما جاء ذلك في سورة الإسراء حيث وجه المولى سبحانه وتعالى الإنسان لامتثال تعاليم تشمل جوانب حياته وصنوف علاقاته:

ـ في أمر التوحيد والإيمان ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾.

ـ وفي العلاقات بالآخرين ابتداءً بالوالدين ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾.

ـ ثم من بعدهم ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ...﴾.

ـ ثم التصرفات الاقتصادية ﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾، ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ...﴾.

ـ وهكذا تستمر التعاليم المنوَّعة:

ـ ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ...﴾.

ـ ﴿ولا تقرَبوا الزِّنَى...﴾.

ـ ﴿ولا تقتُلوا النَّفسَ الَّتي حرَّمَ اللّهُ إلاَّ بِالْحقِّ...﴾.

ـ ﴿وأَوْفُوا بِالْعَهْدِ...﴾.

ـ ﴿وأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ...﴾.

ـ ﴿ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...﴾.

ـ ﴿ولا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا...﴾.

وفي خاتمة هذه التعاليم قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ...﴾[1].

●● ومن حيث هي وصفٌ لإنسان كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ...﴾[2]. إذ تعني كما قال الراغب الأصفهاني: «معرفة الموجودات وفعل الخيرات»[3].

فالثقافة هي جماع معرفة فكرية وحسّ وجداني وحركة علمية، وليست مجرد حشو للذهن بالمعلومات أو تشدُّقٍ بنتف من المعرفة، وقد أسلفت هذا في تعريف الثقافة الإسلامية لكني أؤكده هنا لأهميته، ونقص الوعي به.

د ـ أخيراً، لا بد من ضبط المسلمة توازن شخصيتها بين ما تحمله من

(١) انظر الآيات في: سورة الإسراء من آية ٢٢ حتى آية ٣٩.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٢.

(٣) المفردات في غريب القرآن ١٢٧.

ثقافة تمثل أفقاً سامياً بالنسبة للحياة الاجتماعية، وبين هذه الحياة الاجتماعية التي تعيش المثقفة في ظلالها بما فيها من سلبيات وحركة غير منطقية وأهواء جامحة.

فكما أنه لا يليق بها أن تعتزل هذه الحياة لتعيش في صومعة بنائها الثقافي، كالفلاسفة، وهي مسلمة وتحمل أمانة هذه الثقافة . كذلك لا يسوغ لها أن تندمج في تلك الحياة سائرة مع تيارها التائه، دون تأثير في هذه الحياة.

لا بد أن تعي قيمة ثقافتها التي تحملها، وأنها مَدِينة بهذه الثقافة تطبيقاً في نفسها، كما لا بد أن تعي أن هذه الثقافة التي امتازت بها حمَّلتها مسؤولية تغيير هذا المجتمع نحو أفق تلك الثقافة في الإيمان، والعبادة، والأخلاق، وسائر التصرفات الإنسانية.

★ ★ ★

المسألة الثالثة

المسؤُولية الثقافية للمسلمة

وفيه نقطتان:

- عناصر المسئولية الثقافية.
- تحقيق المسئولية الثقافية.

المسألة الثالثة

المسئولية الثقافية للمسلمة

النقطة الأولى: عناصر المسئولية الثقافية:

المسلم ـ ذكراً أو أنثىٰ ـ مثقفاً وغير مثقف ـ عليه واجب القيام بالحق والدعوة إليه، حسب استطاعته، وموقعه.

ولمَّا كانت الثقافة بالنسبة للمسلمة تمثل ارتقاء في قدرتها الفكرية، فهماً لتعاليم الإسلام، ووعياً بالواقع، وسمواً في موقعها الاجتماعي والعلمي، كانت المسؤولية عليها أكبر وأعظم.

ومن أهم عناصر هذه المسئولية:

١ ـ القيام بحركة منهجية لبناء شخصية المسلمات فكريًّا وإراديًّا وعمليًّا من خلال تدرج فطري مركَّز قائم علىٰ منهج الشريعة الواضح السهل الميسر، بحيث ترتقي هذه الحركة بالجانب النسوي من المجتمع.

٢ ـ التثقيف الإسلامي في المدرسة للناشئة وعدم الاكتفاء بالمناهج الدراسية، ولتحقيق هذا ينبغي أن تستفيد من النشاط غير المنهجي، ومن المادة التي تدرسها، بحيث تطبعها بما يحبب الإيمان إلىٰ البنات، ويزيد تعلقهن به.

٣ ـ الحضانة المُتقِنة، الصانعة للطفل، طفلها بالدرجة الأولىٰ، ومن لها تعلّق بهم ثانياً.

ولا حاجة إلى بيان واقع الطفولة المسلمة التي تتأرجح بين شارع مجدب، ومجتمع جفت نداوة العلاقات بين أفراده، بعد طراوتها الإسلامية ومدرسة غاية ما تفيد به الطفل، تزويده بالمعارف أكثر منها تربية للملكات، فبقي دور الأم متفرداً، بل حتى مع صلاح المدرسة وجهودها التربوية التي يبذلها المحتسبون من الأساتذة الأخيار، يبقى دور الأم سابقاً وأساسيّاً.

وإذا كانت الأم ـ عموماً ـ مطلوب منها رعاية أولادها وتحصينهم من الفساد قدر طاقتها، فإن المثقفة المسلمة مطلوب منها أن تُخْرج من حضانتها أولاً؛ فضلاً عن حصانتهم وتكامل شخصيتهم الذاتية ـ مؤهلين فكراً وإدارة لأدوار قيادية وإيجابية في مدارسهم مع زملائهم، وفي مجتمعهم وحاراتهم مع أترابهم؛ ليكونوا جلساء صالحين مصلحين بالتأثير الذاتي، إن لم يكن بالتأثير المقصود.

٤ ـ تكوين مناخات إسلامية فيمن حولها في بيتها ومع جاراتها وزميلاتها، تحيي فيهن ذكر الله، والاهتمام بتعاليم الدين، ترصد المخالفات وتنبه عليها، وتضبط فيه الحركة التأثيرية، وإنْ على النساء أو الأطفال.

٥ ـ السلوك الحضاري والسمو في السمت الشخصي، بحيث لا يكفي من ثقافتها أن تدرِّس في مدرستها، وتعظ من حولها؛ بل لا بد أن تتمثل ثقافتها في حركتها نطقاً، وصمتاً، وخروجاً، ولبساً، واقتناءً، وطبخاً؛ في علاقتها بزوجها، وأهلها، وأهل زوجها، وجيرانها؛ لأن هناك أموراً لا تنساق معها المدعوَّة بالمعرفة وحدها، إن لم ترها سلوكاً يُحمد، ويرتفع به صاحبه.

٦ ـ مساعدة الزوج بحيث ينبغي أن تكون الزوجة لزوجها ـ إذا كان مثقفاً داعية ـ خير نصير تنظم شئونه، وتسهل له علمه، وتكفيه ما تستطيع من مشاريعه التي يمارسها؛ لأنها بهذا تقدم خدمة للمجتمع، وإن لم تكن باسمها، وتشاركه في الأجر والخير الذي يناله بعمله ذاك.

٧ ـ الإسهام في مجالات العمل النسوي التطوعي وغيره، كالجمعيات الخيرية النسائية، والمواسم الثقافية في بعض الأسواق، ومراكز الترفيه، ونحوها؛ من أجل ترشيدها نحو خدمة أفضل في بث الوعي الشرعي، ونشر الفكر السليم، وللاستفادة من إمكاناتها في خدمة المجتمع في قطاعه النسوي في هذا المجال؛ لأنها إذا عزف عنها الخيرات الصالحات، إما أن تتعطل، وفي ذلك إهدار لقنوات مهيئة، وإما أن تقوم بها غير مؤهلات، وهذا أخطر.

٨ ـ المشاركة في البحوث والدراسات التي تعني المرأة، وخاصة في القضايا ذات الإلحاح، والوجود الواقعي، في إطار منهجية متينة تقوم على فقه في الشرع، وعياً بنصوصه، ومراعاة لمقاصده، وعلي تصور صحيح متكامل للواقع المتناوَل؛ لأن كثيراً من الدراسات المتوافرة الآن؛ إمَّا ثقافية عائمة يهيمن عليها ضغط الواقع الاجتماعي بتداخلاته، أو دراسات تنظيرية تقدم حكم الإسلام في القضايا بوضعها الكلي، دون تصور كامل شامل لواقعها في الحياة القائمة بعللها، ودوافعها، وظروفها، ومترابطاتها.

ومن القضايا التي أرى أنها تتطلب تركيزاً في تحليلها وتغطيتها بحكم

الشريعة، والتي يعيش المجتمع المسلم في جانبه النسوي تذبذباً فيها، وعدم وضوح رؤية: الدراسة والزواج، البيت والعمل، التعامل مع الأطفال والجيران، النزعة المادية في الزواج، علاقة الابن بأهله بعد زواجه، النسل تنظيماً ومنعاً ووسائل، التأثر بالشعوذة ورقة الوعي العقدي، ارتياد أماكن الترفيه والأسفار ـ بأنواعها ـ والتربية الرياضية بالنسبة للمرأة، وأنواع المهن النسائية، الخدم والسائقون، المساحيق والكوافيرات، كسب المعاملة، ودخل البيت. . . إلخ.

ينبغي أن تبحثها المثقفات ثقافة شرعية ممن لهن باع في معايشة هذه القضايا من خلال تحليل وتفصيل وسبر للمصالح والمفاسد، ووعي بالتفاوت بين النساء والعوائل.

وينبغي أن يكون للدراسات الميدانية والقناعات الاجتماعية، والرصد المثبت للنتائج بروز في هذه الدراسات، ليجد الناس أمامهم توصيفات جليَّة تجعلهم يقدمون أو يحجمون مقتنعين مرتاحي الضمائر.

★ ★ ★

النقطة الثانية: منهج تحقيق المسئولية الثقافية:

من أجل فاعلية تحقق تقدماً في العملية الثقافية بين المسلمات، لا بد أن تُتَّخذ السبل العملية الممكنة للقيام بهذه المسئولية، ومن ذلك:

١ ـ التعاون بين المثقفات المسلمات للقيام بالمسؤولية تعاوناً يحقق التكامل في تغطية مجالات الدعوة ومواقع المسئولية، وهذا من واجبات الدين ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[1]، أما الشذوذ والانطواء سواء كان نتيجة عقدة نقص، أو غرور وتعالٍ، فإنه خلل في التدين ونقص في الدعوة.

وينبغي أن يأخذ هذا التعاون أوجهاً متعددة؛ استفادة وإفادة، وإكمالاً من البعض للآخر.

وفي هذا المضمار ينبغي للمثقفة أن تستفيد من زوجها إذا كان بالإمكان الاستفادة منه، فإن مسائل الثقافة الشرعية متقاربة بين الرجل والمرأة، وبذا لا يسوغ أن يعيش كل منهما بعيداً عن الآخر، طاوياً عنه ما لديه من علم وخبرة ومشاعر وعواطف.

٢ ـ إزالة التكلف والرسميات في العلاقة بين ذوي المستوىٰ الثقافي سواء بين الرجال والنساء.

وغالباً ما تتمثل هذه الشكلية في العلاقات النسوية؛ فتكون العلاقة بينهن علىٰ نمط يختلف عن نمط علاقتهن بالأخريات من قريبات وحبيبات حيث تسود هنا الألفة ويسلس التعامل، وتنفتح القلوب، وهذا هو المطلوب بين المؤمنات جميعاً، فإن المؤمن كما أخبر الرسول

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

ﷺ : «يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[1].

٣ ـ تنويع قنوات القيام بهذه المسؤولية دون الاقتصار على قناة أو قناتين، كالمحاضرات والنشرات مثلاً، فهناك إضافة إلى هذه الصلاتُ الفردية، والمجالسُ العادية التي تُستَثمر في هذا المجال، وهناك تنمية الحسّ النقدي العفوي لدى النساء والأطفال تجاه ما لا يتلاءم مع الدين، مما يولد في نفوسهم نفوراً منه؛ فنقد فيلم سيّئ يشاهده أطفال قريبكِ أو جاركِ، ونقد تصرف غير سليم، ورفض شيء غير مقبول، والإعجاب بأمر حسن، والثناء على صاحب تصرف طيب، كل ذلك يولّد في المشاعر حباً أو بغضاً، ومن ثم إقبالاً أو نفوراً.

وكذلك المشاركة في الوسائل الإعلامية الممكنة شرعاً وواقعاً.

٤ ـ ينبغي أن يكون لحركية المسلمة الثقافية وجهان:

* **محلي**: بحيث تتأطر ثقافة بعض المسلمات بكيفيات مجتمعها الذي تعيش ظروفه وأحواله.

فما من شك في أن المجتمعات تختلف فيما بينها في أوضاعها ـ خاصة ـ الاجتماعية التي هي مجال تنفيذ تلك المسؤولية، ومن ثم ينبغي أن يوائم هذا التنفيذُ خصوصية المجتمع الصغير الذي تعيش فيه المثقفة، وحاجاتهِ الذاتية؛ لأن هذا المجتمع أولى باهتمام المرأة، ولأنه أجمع لجهودها إذا كانت مواقع هذه الجهود محدودة ومعاشه.

(١) رواه أحمد والبزار، قال في مجمع الزوائد (٨/ ٨٧): رجال أحمد رجال الصحيح.

* عــالمي: فرغم حاجة المجتمع الخاص للجهود الثقافية النسوية التي تجعله محورها، إلا أنه لا بد ـ أيضاً ـ من أن تتوجه أضواء من ثقافتنا النسوية ـ الشرعية ـ إلىٰ ما وراء مجتمعنا ـ إلىٰ المجتمع الإسلامي الكامل والعربي منه علىٰ وجه الخصوص، ولا ريب أن في كل مجتمع جهوداً لمثقفاته المسلمات خاصة به، ولكن المطلوب هنا هو: تفاعل ثقافي بين المسلمات في المجتمعات المتعددة، من أجل تسديد المسيرة الثقافية، والمقاربة بينها من خلال حركة رَدٍّ نحو منبع الثقافة الإسلامية القرآن الكريم والسنة المطهرة، لتأصيلٍ عقدي، وانضباطٍ شرعي أكثر فأكثر وأفضل فأفضل، وهي خطوة راشدة. ولا شك لو تحقق شيء منها؛ لأن كثيراً من مجتمعات المسلمين، بل من الدعاة والداعيات فيها تشكو من نقص في التصور الإسلامي الصحيح، وعدم وضوحٍ في المعايير الشرعية الضابطة لسلوك العباد، مما ينعكس علىٰ حركة التوجيه التي يقومون بها.

٥ ـ ينبغي أن تكون عملية تنفيذ المسئولية الثقافية واقعيَّةً لصيقةً بالمرأة في مجال العمل، وبحاجاتها، مناسبةً للفطرة، متمازجةً مع حاجاتها اليومية، مُرْضِيَةً رغباتها وميولها في القراءة والاستماع . . .

إن ما يسمىٰ بالثقافة النسوية التي تحمل بذور المادية التي تصد عن سبيل الله، وتغري المرأة بانتهاك حرماته، واتخاذ الكافرات مَثَلَها الأعلىٰ، وانصراف القلب إلىٰ المظاهر الفارغة، دخلتْ من خلال مجالات المرأة بما تحمل من مقابلات لأناس تافهين يُبْنَىٰ من كلامهم أحكام، وبما تُقَدِّم من قصص قصيرة وعرض للموضات، والجديد في

دنيا المساحيق، والمكاييج والتسريحات. . . ، ومثل: المجلات بعض مجلات الأزياء والطبخ ونحوها مما تحتاجه المرأة فتأخذه بما يحمل من تصورات.

ومن هنا فينبغي أن لا تحتقر المثقفة المسلمة هذه الجوانب وتتعالىٰ بثقافتها عليها حاصرةً جهدها بالنقاش العلمي، أو التنظير الفكري الذي لا تستسيغه نفسيةُ أكثر الناس اليوم، حيث يميلون إلىٰ كل قصير سريع خفيف.

وينبغي أن تسهم المثقفة المسلمة في صحف المرأة، أو باب الأسرة من الصحف العامة بالقصة، والمقابلات لبنات جنسها لتؤكد من خلالها مطالب الشرع، ولتوظيف أبواب التجميل والطبخات والذكريات والمشاكل الاجتماعية وحلولها، وأمثال تلك الأبواب في خدمة أهدافها.

٦ ـ ينبغي للمثقفة ألا تنخدع بدعاوىٰ أننا في عصر العلم، وأن قيمة ما يقدمه الإنسان بقدر التزامه منطق العقل، ومنهج العلم، بعيداً عن أي مؤثرات ذاتية أو خارجية. فتغرقَ نفسها بسبب ذلك في جدليات عقلية وتعليلات تبعدها عن الجمهور، ولا تحقق لها أثراً في الواقع المعاش.

ينبغي أن تعي المثقفة المسلمة أن العاطفة مَنْجَمٌ ضخم تستطيع أن تجعل منها زِرّاً تضيء من خلاله نفوساً كثيرة.

إن المنهج العاطفي منهج قرآني، فالقرآن استخدم الترغيب

والترهيب والوعد والوعيد في آي كثيرة جدًّا، وهو منهج فطري تنساق له النفس البشرية، ومنطق عملي يتفاعل معه الناس في حركتهم اليومية، وهل تأثر المتأثرون بالمبادئ الهدَّامة كالماركسية ـ مثلاً في زمن مضىٰ ـ إلا انسياقاً مع وعودها، وجنَّاتها المنتظرة، وهل انصرفوا عن الحق إلا بسبب تشويه الأعداء له.

كما لا بد من الانتباه إلىٰ أن المنهج العلمي اليوم ـ في مجال الحياة الاجتماعية خاصة ـ لم تعد تجدي فيه محاكمات منطقية صورية، إنَّما أصبح يعتمد ما تثبته الدراسات الإحصائية، وما يتحقق من آثار عملية سلبية أو إيجابية للقضايا المدروسة.

فلا بد من استثمار هذا المنهج العملي المفيد.

٧ ـ من المهم للمسلم والمسلمة والمثقفة الداعية ـ بوجه أخص ـ النقد الذاتي والتقويم المتواصل لشخصيتها ولحركتها؛ لأنها مظنة الغفلة عن نفسها، ومرمىٰ شباك الشيطان، كي يقطع عليها مقامها وتأثيرها، هذا فضلاً عن أن الثقافة بحاجة دائماً إلىٰ التزود والمراجعة.

ومن هنا، وحتىٰ لا يحدث انتكاس إنْ في تحصيل الثقافة، أو في القيام بالمسئولية، لا بد من وقفات تراجع فيها المسلمة نفسها، وتقوّم جهدها، وتتحسس مواقع خطوها، وتخطط لمستقبلها، وبذا يكون بناؤها سائراً نحو التمام في نفسها ومع غيرها.

★ ★ ★

المسألة الرابعة

حقيقة المرأة في المنهاج الإسلامي

وفيه نقطتان:

- قضية المرأة.
- المقررات القرآنية بشأن المرأة.

المسألة الرابعة

حقيقة المرأة في المنهاج الإسلامي

قضية المرأة:

هل للمرأة قضية تختلف في مسائلها الرؤىٰ والحلول؟

الواقع المعاصر يقول: نعم!

لقد أصبحت المرأة ذاتها ـ إشكاليةً من حيث حقيقتها، وواقعها، والغاية التي تسير، أو يُسار بها إليها.

يتجلىٰ هذا في حياة المرأة ـ والحكم ليس عامًّا بالطبع ـ في واقعها الفكري والسلوكي الذي يدلُّ عليه ـ فضلاً عن تصريحاتها المتفلتة منها ـ علىٰ أنها تائهة عن ذاتها، وإن كانت تبحث عنها، وأن ذلك أورثها ارتباكاً في حركتها، وغموضاً ـ مع ثورة ـ في طموحاتها.

كما يتجلىٰ في الكتابات المكثفة عن قضية المرأة، التي تدل هي الأخرىٰ ما دلَّ عليه سابقها.

ولقد كثر الكاتبون والدارسون لهذه القضية في كل اتجاه في ساحتنا الثقافية وتنوعت الشاكلة التي تتجلىٰ فيها المرأة التي يُطمح إلىٰ وجودها بحسب شخصية الباحث واتجاهه الفكري وموقعه الاجتماعي.

وغالباً ما يكون الواقع الاجتماعي أو الخلفية التأريخية لوضعية المرأة في حياة المسلمين خاصة المتعلقة بحياتنا الحاضرة لها أثر في تحديد تلك الشاكلة؛

ركوناً إلى تلك الوضعية أو ثورة عليها .

كما أن وضعية المرأة في الحضارة المعاصرة بما يحيطها من إبراز إعلامي لها أثر أيضاً بالإعجاب ، وطلب الاقتفاء أو الرفض لها .

وهذه طبيعة البشر في تفاعلهم مع الأشياء حيث لا مناص من التأثر إيجاباً أو سلباً ، قليلاً أو كثيراً .

إن المسلمة في عالمنا العربي والخليجي ـ بخاصة ـ تواجه مدًّا ثقافيًّا هائلاً مركزاً في قضية المرأة .

فكرياً في كتب وندوات ومؤتمرات . . .

وإعلاميًّا في صحف ومجلات وبث مباشر . . .

وهو من الخطورة بحيث يمكن أن يُزيغ الفؤاد ويهز بقوة ـ لا مجرد التقاليد المتواطأ عليها ، ولا الجزئيات التي يمكن القبول بالخلاف فيها ، بل يهز المسلّمات الدينية التي قررتها نصوص الشريعة .

إن هذا المد يطرح عديداً من المسائل التي تتبلور فيها قضية المرأة في نقلتها المطلوبة من واقعها إلى وضع آخر جديد ، ومن أبرز هذه المسائل التي يطرحها هذا المدّ وفق تنظيره الخاص بما يلي :

- إنسانية المرأة المفقودة واقعاً ، والتي لا تتحقق إلا في استقلالها التام عن الرجل اقتصاديًّا ، وعاطفيًّا ، وفي القضاء على أنثوية المرأة التي تحجب هذه الإنسانية .
- الاختلاط الذي ينفتح فيه كل جنس على الآخر بصفته عاملاً في نجاح حركة العمل .

- السفور باعتبار الحجاب ليس مجرد حجب للمرأة عن الرجل، وإنَّما هو حجب لعقل المرأة عن الطموح والإبداع.
- التعملق نحو مواقع العمل المتقدمة حيث تسيطر المرأة على الرجل.
- ومن ثم الانتقام من الرجل الذي مارس قهراً على المرأة طيلة عصور مضت.
- رفض الفكر الغيبي الذي يرى أن عدم تحميلها مسؤولية مضاهية للرجل ناتج عن نقص إمكاناتها وعقلها، واعتبار العكس هو الصحيح؛ وهو أن نقص عقلها، وإمكاناتها ناتج عن الحيف عليها وعدم تحميلها المسئولية.
- إلغاء كل الميزات الشخصية للرجل في علاقته بالمرأة؛ هذه الميزات التي تُفَسَّر بأنها ضد كرامة المرأة وإنسانيتها:
  - مثل: إلغاء المهر الذي يدفعه الرجل باعتباره مقابلاً مالياً لجمال المرأة الجسمي ومقابلاً لهيمنة الرجل على المرأة.
  - وإلغاء اشتراط الولي للمرأة في عقد النكاح.
  - ومنع حرية الرجل في التزويج بأكثر من واحدة حتى ولو كان بإذن القاضي، وله ما يبرره اجتماعيًّا؛ لأن هذه الحرية تمثل سيفاً مسلطاً على المرأة بتبعيتها للرجل.
- المهاجمة الثورية لكل الحواجز التي تقف في وجه هذا المدّ:
  - مثل: محاربة قوانين الأحوال الشخصية التي ما تزال على الشريعة في بعض المجتمعات المسلمة.
  - ووصم المجتمعات التي ما تزال محافظة على السمات الإسلامية في شؤون المرأة بالتخلف والبداوة والأبوية... إلخ...

يقول أحد البحوث الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت عن مجتمع الجزيرة العربية:

«لنأخذ نموذج الشخصية الشائعة للمرأة في شبه الجزيرة العربية باعتباره يمثل النموذج الأمثل للمرأة التي لم تتساوَ بعد مع الرجل في الحقوق السياسية والمدنية والتي ما زالت تخضع لسلطان العرف والتقاليد والتي تستسلم للضغوط الاجتماعية . . . والتي تقيد رغباتها في اختيار نوع ومكان العمل المناسب لرغباتها وقدراتها والتي تفرض قيوداً على تمتعها بفرص التعليم المتكافئة التي تمنح للرجل والتي لم تصل بعد للمساواة الكاملة في أجورها مع الرجل . . . والتي ما زال الرجل فيها يمارس حقه الشرعي في تعدد الزوجات وحرية الطلاق والتي لم تقف بعد موقفاً ثوريًّا بالنسبة للمشكلات السياسية التي يعانيها الوطن العربي»[١].

ومصادمة الوحي فيما قرره عن المرأة ولها مباشرة لدى بعضهم - وبصورة غير مباشرة لدى البعض الآخر - خاصة في الآونة الأخيرة برفض للمقولات الإسلامية بهذا الشأن الموجودة في كتب التفسير، والحديث، والفكر الإسلامي باعتبارها تقوّلاً على الإسلام من قبل أناس تأثروا بواقعهم ففسّروا به الوحي، ومن ثم يتهمونهم بأنهم «يستغلونه في تسويغ تسلط الرجل على المرأة»[٢].

كتبَ شخصٌ في جريدة الشرق الأوسط مقالاً بعنوان: «الرجال قوامون

---

(١) بحث (إمكانيات المرأة العربية في العمل السياسي) حكمت أبو زيد، ص ١٥٨ في (المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية).

(٢) بحث . . . النظام الاجتماعي وعلاقته بمشكلة المرأة العربية، حليم بركات، ص ٦٢ في (المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية).

على النساء» وجاءت ردود كثيرة ترفض هذه القوامة فكتب ردًّا يقول فيه: «الرجال قوامون على النساء شئتم أم أبيتم هذا قول الخالق عز وجل وليس قولي، فلماذاً الاعتراض؟!.

هنا يرتد الاتهام إليه بأنه يستغل الدين في تقرير استبعاد الرجل للمرأة جاعلاً كلامه كلام الله[1].

ومن أجل تركيز هذه الأطروحات في الأذهان يستغلون فيض النظريات النفسية والاجتماعية ونحوها ـ مما يتفق مع مراداتهم ـ للإيهام بأن هذه الأطروحات تركن إلى أساس مكين.

وفي وقتنا الراهن تحولت وجهة بعضهم من موجة المد الإسلامي إلى استغلال الدين، والتلاعب بنصوصه، واستخدامه ـ كما تقول نوال السعداوي ـ استخداماً تقدميًّا يخدم المرأة في حركتها النسائية[2].

لهذا كانت سطوتهم كبيرة في محيط الثقافة الإسلامية حتى حرّفت معها أناساً ممن يدخلون في دائرة الإسلاميين؛ إما بموقف الدفاع الهزيل عن بعض الأحكام الشرعية التي يرفضها هؤلاء، أو بتأويلها بما يحيل دلالة النصوص عن مؤداها الشرعي أو بما هو أكثر من هذا.

في تونس ـ مثلاً ـ تبنى بعض الإسلاميين تحت ضغط الواقع أولوية العقل أو الواقع على النص الشرعي حتى (وإن أدّت مقتضيات الواقع إلى تجاوز ظواهر النصوص القطعية وتعطيلها تحقيقاً للمقاصد كما هو الشأن في

(١) بحث... النظام الاجتماعي وعلاقته بمشكلة المرأة العربية، حليم بركات، ص ٦٢ في (المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية).

(٢) بحث (نحو استراتيجية المرأة العربية وتعبئتها في الحركة القومية العربية) لنوال السعداوي، ص٥٠٦، من المرجع السابق.

مسألة تعدد الزوجات فاعتُبرت - أي من قبل الإسلاميين هؤلاء - مجلة الأحوال الشخصية التي أصدرها النظام البورقيبي مكسباً تحررياً . .)(١) .

قد تقول قائلة هنا :

رغم خطورة هذا المد وكثافته وكثافة قنواته ، إلا أن الفتاة والمرأة - عموماً - إما ملتزمة بدينها باقية على فطرتها ؛ فهي لا تأبه بذلك ولا تقرأه ، ولا تتابعه ، ومن ثم فهي بمعزل عنه لا خطورة عليها منه .

وإمَّا منحرفة ، ذاهبةُ الدين فهذه حاجتها إلى الإيمان بالله أولاً .

وهذا في نظري - غير صحيح ؛ إذ أن هناك فئة ثالثة - وإخالها الأكثر عدداً والأقوى حضوراً وتأثيراً - في مجتمعنا العربي ، والخليجي بخاصة .

هذه الفئة لَسْنَ من العازفات عن متابعة هذه القضايا الفكرية في شأن المرأة ولَسْنَ من المنحرفات المنسلخات .

إنهنَّ مؤمنات بالله مؤديات للصلاة آخذات بسمت الإسلام بدرجات متفاوتة وفي الوقت نفسه هن منفتحات على الفكر المعاصر بأطروحاته بما فيها مما يعني المرأة معايشات للواقع الأوسع من مجتمعهن الصغير بدرجات متفاوتة أيضاً في هذا الانفتاح والمعايشة .

---

(١) الكلام للغنوشي في (الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي)، ص ٣٠٦ .

ولهذا يتساءل عبد المجيد الشرفي بعد أن يورد نصوصاً لهؤلاء الإسلاميين في كتابه (المرأة بين المجتمع وواقع المسلمين) مثل قول أحدهم : «إن قضية المرأة قضية اغتراب وظلم واستعباد ، قضية إنسان سلبه الانحطاط المغلف بالدين إنسانيته . . . » .

يقول الشرفي : «أين الاختلاف - بين الأصوليين والعلمانيين - ونحن نرى تبنياً كاملاً لقيم الحداثة» ، الإسلام والحداثة ، ص ٢٥٥ .

وهؤلاء منهن الطالبات، والمدرسات، والصحفيات... وغيرهن.

وهن - حتى ذوات الثقافة منهن - يمكن أن يتأثرن، وهذا التأثر يمكن أن يتجاوز السطح إلى العمق؛ إلى الركون نحو ما يتعارض مع شريعة ربهن.

وهذا التأثر البالغ هذا الحد لا تخطئه عين القارئ لبعض الكتابات النسائية، والمقابلات الصحفية، ولا عين المتابع للتناقضات السلوكية التي تقع من المرأة إذا تغير الجو - الاجتماعي - بانتقالها مثلاً من مجتمع محافظ إلى مجتمع غير محافظ.

لهذا كله، كان حريًّا بالمسلمة - خاصة المثقفة -، وأخص ذوات التفاعل مع الفكر والواقع المعاصرينَ، أن تتأمل في تقريرات القرآن الكريم، والسنَّة المطهّرة الخالدة الثابتة في شأن المرأة آخذة بدلالاتها الأقرب إلى الصحة دون التأويلات المفروضة على هذه النصوص اتباعاً لسطوة الواقع أو تشبثاً بالصورة التاريخية للمرأة في المجتمعات المسلمة في عصورها المتأخرة.

وسأشير - باختصار - إلى أهم مقررات القرآن الكريم بشأن المرأة المسلمة فيما تعانيه المرأة المعاصرة دون أن أجعله ردًّا على الأطروحات القائمة.

الجانب النظري:

١ - المرأة والرجل يعودان إلى أصل واحد وجنس واحد، حيث خلق الله آدم أبا البشر رجالاً ونساءً من التراب ونفخ فيه من روحه ثم خلق منه حوّاء زوجة.

فأصلهما الطيني واحد، وجنسهما الإنساني واحد.

يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ

منْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[1].

فالنفس الواحدة هنا هي آدم وعلى ذلك أجمع المسلمون كما يقول الفخر الرازي في تفسيره[2]: (وزوجها المخلوق منها هو حواء حيث خلقها الله من آدم أي من جسمه). قال أكثر العلماء: إنها خلقت من ضلع من أضلاعه استناداً إلى الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره في قوله ﷺ: «**إنَّ المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه**»[3]. والحديث لا يدلُّ بشكل صريح على خلق حواء من ضلع آدم.

لكن تبقى الدلالة صريحة في أن حواء خلقت من آدم ﴿خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[1].

وخالف أبو مسلم الأصفهاني فقال: «إن خلق حواء من آدم ليس من جسمه بل من جنسه»[4].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٥/ ١٦٦.

(٣) رواه البخاري. انظر: جامع الأصول ٦/ ١٤٥.

(٤) انظر: روح المعاني للألوسي ٣/ ١٨١.

ومن المفارقات هنا التناقض في التأويل العملي لخلق حواء من آدم بين العلماء السابقين المتحررين من ضغط قضية المرأة في الفكر المعاصر وبين الواقعين تحته.

فبينما يرى أولئك العلماء أن ثمرة التأمل في كون المرأة مخلوقة من الرجل هو الشعور بالتكامل بينهما وأنْ يرفق الرجل بالمرأة ويقدرها بحكم أنها جزء منه وأن لها كرامة مثله.

يرى الواقعون تحت ضغط فكر العصر في هذه القضية أن التمسك بتفسير أن حواء خلقت من آدم مباشرة يحمل لدى أصحابه (بشكل واع أو غير واع ـ تكريس تبعية المرأة للرجل على الصعيد الاجتماعي وانمحاء شخصيتها وذوبانها في شخصيته وتكريس التميز والأفضلية له عليها...) ١٧، المرأة المسلمة في تونس.

٢ ـ المرأة والرجل كلاهما هبة من الله سبحانه وتعالىٰ وهما فتنة وزينة لهذه الحياة الدنيا.

يقول سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾(١).

٣ ـ القيمة العامة في النظر إليهما ـ الرجل والمرأة ـ واحدة:

* في مجال التكليف حيث الخطاب التشريعي في الإسلام موجّه لهما معاً وحيث التلبس بالدين إسلاماً وعبادة وخلقاً مطلوب منهما معاً:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢).

* والمحاسبة أمام الله سبحانه وتعالىٰ:

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾(٣).

٤ ـ اقتضت حكمة المولىٰ سبحانه وتعالىٰ أن تكون القيوميّة الأحدية له وحده وأن تكون الموجودات سواه قائمة علىٰ الزوجية المتكاملة التي لا يقوم

---

(١) سورة الشورىٰ، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٥.

(٣) سورة النساء، الآيتان: ١٢٣، ١٢٤.

وجودُها قيامَه الصحيح الذي تتحقق به غاية وجوده إلا بهذا التكامل.

قال سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(1).

قال مجاهد: (كل خلْق الله شفعٌ: السماء والأرض، البر والبحر، الرجل والمرأة، والوتر الله وحده)(2).

هذا التكامل الزوجي بينهما:

* بالسكن المتبادل بينهما؛ حيث يسكن كل منهما للآخر ويجد ذاته والأنس في جانبه. فالمرأة تسكن إلىٰ الرجل ـ التي هي في أصلها جزء منه لتجد الدفء والقوة والعون علىٰ أعباء الحياة بيتاً وولداً.

* والرجل يسكن إلىٰ المرأة ـ التي هي في الحقيقة جزء من ذاته ـ؛ لينعم ببرد العيش هرباً من وهج الحياة وهجير الجفاف العلائقي مع الآخرين.

قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...﴾(3).

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...﴾(4).

* وبالمودة والرحمة:

المودة: التي تتضمن المحبة القلبية والألفة الحياتية التي تتجاوز المحبة لأجل الشكل، أو لأجل مصلحة مؤقتة إلىٰ محبة ترتكز علىٰ النظر إلىٰ

---

(1) سورة الذاريات، الآية: 49.

(2) انظر: فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري 6/ 365.

(3) سورة الروم، الآية: 21.

(4) سورة الأعراف، الآية: 189.

الآخر من حيثيات عديدة :

من حيث أنه جنسه الذي هو منه .

ومن حيث جانبه الإيماني والخلقي المتضمن مودة منه له .

ومن حيث الرباط والعهد الذي به قيام الحياة الزوجية باسم الله .

والرحمة : وهي لفظة تتضمن معنيين :

الرقة القلبية .

والإحسان الذي يمثل ثمرة تلك الرقّة(١) .

وهذان العنصران ـ أقصد المودة والرحمة ـ متكاملين في بنية العلاقة بين الرجل والمرأة :

فما يتجهان من كل منهما إلى الآخر من الرجل للمرأة ومن المرأة للرجل .

ـ ويغطي أحدهما ما يحدث من نقص في الآخر مثلاً عنصر المودة بين الزوجين فإن عنصر الرحمة يبقى رباطاً للعلاقة بينهما ، ولهذا قال ﷺ : «**لا يَفْرَك مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقاً رضي منها آخر**»(٢) .

---

(١) انظر : المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني : ١٩١ .

(٢) رواه مسلم . انظر : جامع الأصول : ٥١٨ .

من المفارقات هنا أن هذه الزوجة التي بتكاملها يتحقق لكل من الرجل والمرأة وجوده الحقيقي الأفضل وفق مدلول النصوص حيث عدّ نعمه ومنّة من الله على خلقه .

ينظر إليه البعض في وقتنا الحاضر على أنه قهر للمرأة أمام الرجل وأن الوجود الحقيقي للمرأة لا يتم إلا بانفصالها عن الرجل ، وتحقيق ذاتها بهذا الانفصال عنه في نشاطها وعملها وإشباع رغباتها حيث تتجلى حقيقتها بصفتها إنساناً مستقلاً .

ولو أن هؤلاء نظروا في نتيجة هذا الاستقلال للمرأة في المجتمعات المتقدمة فيه لرأوا ضياع المرأة=

٥ ـ الحقوق متبادلة بين الرجل والمرأة ـ بين الرجال والنساء، يجري ذلك وفق العدل الذي شرعه المولىٰ الكريم سبحانه.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(١).

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾(٢).

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾(٣).

٦ ـ ولكن على الرغم من أن الأصل واحد والجنس واحد، إلا أن للمرأة طبيعة (خاصيّة) تتميز بها عن الرجل، نستطيع أن نقول عنها أنها طبيعة الأنوثة التي تختلف عن طبيعة الرجولة لدىٰ الرجل.

هذه الطبيعة الأنثوية بما فيها من عواطف ورقّة، وقدرة على التأثير العاطفي على الرجل. قال ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبّ الرجل الحازم من إحداكنّ**»(٤).

وبما فيها من تصلب من جهة أخرىٰ، قال ﷺ: «**إن المرأة خلقت من ضلع**

= وفقدها السكينة والأمان.

يقول بارسونز عن سعادة المرأة الأمريكية: «إن المرأة الأمريكية شعرت بالتحرر من أعباء الأشغال المنزلية... وأدىٰ ذلك إلىٰ شعورها بالفراغ القاتل والجري وراء الأشياء التافهة، ومن ثم بدأت تعاني من القلق والتوتر والأرق وعدم الشعور بالاطمئنان النفسي، وهكذا انتمت المرأة الأمريكية إلىٰ طبقة الفراغ». ٤٥٦، المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ٧.

(٤) رواه مسلم. انظر: جامع الأصول ١١/١٧.

وإن أعوج ما في الضلع أعلاه»(١).

وبما فيها من قدرة على توظيف زينة الدنيا ـ الحلية في تكريس هذه الأنوثة وسحرها. قال تعالى: ﴿**أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**﴾(٢).

هذه الطبيعة لها جانبان:

* جانب الأصالة فيها؛ أي أن هذه الأنثوية جزء من أهمية المرأة التي لا تتحقق وظيفتها لو حاولت تجريد نفسها منها، ولهذا حرَّم الله على النساء أن يتشبهنَّ بالرجال ويتقمصن شخصياتهم، كما حرَّم بالمقابل تشبه الرجال بالنساء، أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**لعنَ رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال**»(٣).

* وجانب التقويم لها، وهذا يُنظر فيه إلى الجانب العملي الذي تمارسه.

فإذا نظر ـ مثلاً ـ إلى وظيفة الحضانة للطفولة عُدّت عاطفتها الأنثوية ميزة تتفوق بها المرأة على الرجل.

لكن إذا ما نظر إلى هذه العاطفة في مجال يقتضي الحضور الذهني المركّز والمعايشة العملية كما في قضايا التعامل التجاري ـ مثلاً ـ عدّت نقصاً في المرأة.

ولهذا جاء في حديث أبي سعيد الخدري قوله ﷺ للمرأة: (أليس شهادة

---

(١) رواه البخاري، انظر: جامع الأصول ٦/ ١٤٥.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ١٨.

(٣) صحيح البخاري ٧/ ٥٥، كتاب (اللباس).

المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ . قلن: بلى . قال: فذلك من نقصان عقلها)[1] .

٧ ـ لهذا كان مقتضى الحكمة أن يؤدي اختلاف المرأة عن الرجل في طبيعتها الأنثوية عن طبيعته الرجولية إلى اختلاف في الاهتمام والحركة والسعي[2] . وأن يكون تميزها في حركتها، ونجاحها في هذه الحركة المتميزة عن الرجل دليل أصالتها ، وبرهاناً على سلامة اتجاهها في سبيل تحقيق وظيفتها في هذا الوجود، وأن يكون توجيه المرأة إلى مجالات العمل والسعي المناسبة لخاصيتها هو الصدق في طلب مصلحتها، واستفادة المجتمع من إمكاناتها الصحيحة.

الجانب العملي:

رأينا كيف أن الله مدَّ رسوله ﷺ بتعريف واضح عن حقيقة المرأة في أصلها وجنسها الذي تتفق فيه والرجل، وعن أساس علاقتها بالرجل سكناً ومودة ورحمة وعن قيمتها في دورة الحياة بينهما، والتميز الذي تختلف فيه عن الرجل، وهو التميز الذي يترتب عليه الاختلاف في حرية الحركة التي تمثل الجانب العملي:

---

(١) أخرجه مسلم. انظر: جامع الأصول ٧/ ١١ . ويرد هنا قوله مقام الضعف النسائي قوله ﷺ: «**لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر**» رواه البخاري ومسلم . انظر: جامع الأصول ١٠/ ٣٢٦ الذي فسّره العلماء باستجابتها لإبليس في الأكل من الشجرة وإنّما أوردته هنا؛ لأن كثيراً من المفكرين الإسلاميين ينفون عملية الإغراء نفياً قاطعاً ويعتبرونها من المقولات الخاصة بأهل الكتاب.

(٢) يستشهد بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [سورة الليل، الآيتان: ٣، ٤] أي: مختلف بين الذكر والأنثى وإن كان مدلولها المباشر سعيكم أيها الناس.

(١) في إطار الأسرة:

* الأسرة تمثل خليّة عمل مشترك متنوع يتجه إلىٰ غايات موحدة، وكل جزء في هذا المجتمع ـ الخلية ـ هو عنصر بنيوي فيه أي مرتبط بالأجزاء الأخرىٰ أخذاً وعطاءً من كل من عناصره ذكوراً وإناثاً ولهم بالعدل والمعروف.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(١).

كان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يتزين ويتجمَّل، فقال له ابن عمر: لِمَ هذا؟ قال ابن عباس: أتزين لامرأتي كما تتزين لي أفعل ما يأمرني الله ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٢).

* ولكن علىٰ الرغم من ذلك فإنهما أقصد الرجل والمرأة ـ ونحن هنا في المجال العملي ـ ليسا بدرجة:

بل الرجل أعلىٰ درجة من المرأة ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾(١).

والرجل له الأفضلية عليها: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٣).

* والأسرة دولة لا بد لها من حاكم ينظم ويوجه مسيرتها، أو هي سفينة تحتاج إلىٰ ربان يكون المسئول عن توجيه حركتها والإشراف علىٰ سلامتها من العطب.

هذه القيادة هي التي يسميها القرآن القوامة والتي هي تلقائيًّا من نصيب

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي ٢/ ١٣٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٤.

الرجل لمبررات كثيرة:

- بالدرجة التي له على المرأة والتفضيل الذي نصَّ عليه القرآن الكريم.

- وبما يتحمله من تأمين عصب حياة هذه الأسرة وهي النفقة.

- وبما يختص به من جلَد وقدرة على المواجهة، وتحكّم عقلي ونحوها من سمات هي أوفر لديه من المرأة. يقول سبحانه: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾(١).

ما هي عناصر القوامة التي تتحقق بها، من قبل الرجل قياماً، ومن قبل المرأة امتثالاً وتجاوباً؟

من أبرز هذه العناصر:

أ- المسؤولية الشاملة عن البيت زوجة وأبناءً التي سيتحملها أمام الله سبحانه وتعالى - سواء كانت في الجوانب الدينية، أو الدنيوية.

قال ﷺ: **«والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته»**(٢).

والرعاية في الجوانب الدينية تتمثل في حمايتهم - زوجته وأولاده - من المسالك التي تؤدي بهم إلى ما يسخط الله ويُوجب عقابه ونيرانه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾(٣).

والرعاية في الجوانب الدنيوية تتمثل في المعاشرة بالمعروف والإنفاق ونحوها من الحقوق:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما. انظر: جامع الأصول ٤/ ٥٠.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾(١)، ﴿وبِمَا أنفقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾(٢).

ب ـ يقابل هذه المسئولية التي حمّلها الرجل حق الرعاية الداخلية لهذه الأسرة تحت قيادة الرجل دون تمرد، أو إفساد من قبل المرأة.

«والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها»(٣).

وأبرز ما تتمثل به هذه الرعاية:

* الطاعة للزوج في غير معصية الله.

* عدم الخروج على قوامته بالميل إلى غيره من الرجال:

ـ لا بالزواج؛ إذ هي مقصورة عليه.

ـ ولا بالمصادقة لغيره ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾(٤).

ـ ولا بالإذن في بيته لمن لا يأذن له: روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحلُّ للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه»**(٥).

* العشرة بالمعروف الذي يشمل إتيان ما يحقق رضا هذا الزوج والوفاء بمتطلباته وهو كما جاء مرويًا في الحديث: **«حُسْن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته»**(٦).

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما. انظر: جامع الأصول ٤/ ٥٠.

(٤) سورة النساء، الآية: ٥.

(٥) صحيح البخاري ٦/ ١٥٠، كتاب النكاح.

(٦) جاء هذا في حديث الوافدة أسماء بنت يزيد، ومن عظيم ما جاء فيه أن المرأة بتحقيقها التبعل=

فإذا ما تنكرت المرأة لهذه المطلوبات أو بعضها، فإنها تكون قد أخلَّت بواجب الرعاية المكلفة بها، ومن ثم يعطي الشرع قائد الأسرة القيِّم عليها حق إرجاعها إلى الانضباط مرة ثانية، وقد حدد له الشرع المسالك التي يأخذ بها لتحقيق هذا الانضباط.

ومنها ما جاء في آية النشوز في سورة النساء في قوله سبحانه: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[1].

(٢) في الإطار الاجتماعي:

أ ـ القطبان المتجاذبان:

كما أسلفنا، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الزوجين الرجل والمرأة من أصل واحد وجنس واحد، ولكنه ـ سبحانه ـ جعلهما قطبين مختلفين بخاصية الأنوثة للمرأة والرجولة للرجل، وجعل ـ سبحانه ـ كل قطب منهما منجذباً للآخر بالفطرة، ثم شرع ـ سبحانه ـ منهج الاستجابة لهذا الانجذاب بما يحقق صلاح الإنسان وحكمة الوجود بالزواج والتسري.

كما سدَّ ـ سبحانه ـ ذرائع طغيان هذا الانجذاب بين هذين القطبين الذي إذا فُتح بابه دمرهما ودمَّر المجتمع الإنساني كله ـ والعياذ بالله ـ.

* وهنا أمر ـ سبحانه ـ بغض البصر من كل من المرأة والرجل عن الآخر

= الحسن تنال من الأجر العظيم ما يعدل جهود الرجل في الجهاد والجمع والجماعات التي ينفرد بها دونها في الأصل.

(١) سورة النساء، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

ـ الأجنبي عنه ـ قال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(١).

ثم قال موجهاً الخطاب للنساء: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾(٢).

* كما حرَّم انفراد رجل بامرأة أجنبية عنه ليس معهما ثالث، وهي الخلوة المحرمة ولو كان من أقرب الناس ما لم يكن مَحْرَماً(٣).

وسُئل ﷺ عن أخي الزوج يدخل على زوجة أخيه وحده فقال: «**الحَمو الموت**»(٤).

والمرأة هي موضع الرقّة والتزين وعناصر الجاذبية الساحرة فيها أكثر وأعظم من الرجل، هذا فضلاً عن طبيعة الانجذاب من كل منهما للآخر. فالرجل يتسم انجذابه للمرأة بالسرعة والانفعال والتركز ـ خاصة في البدء ـ في الجمال الجسماني بمواضعه المتعددة، خلافاً للمرأة التي تتركز جاذبية الرجل لديها في أمورٍ أخرىٰ؛ كالقوة، والرجولة، والقدرة على التأثير الكلامي، ونحو ذلك(٥).

لهذا وغيره شرع الله ـ سبحانه ـ ما يحفظ للمرأة كرامتها وجمالها، وما يقي الرجل من مثيرات الجنس ومهيجات الشهوة:

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٠.

(٢) سورة النور، الآية: ٣١.

(٣) رواه البخاري ومسلم. انظر: جامع الأصول ٦/٦٥٨.

(٤) رواه مسلم. انظر: جامع الأصول ٦/٦٥٦.

(٥) هذا مما يعرف بالتجارب. وانظر: التحليلات النفسية التي تؤكد هذا في نقولات كتاب: المرأة المسلمة في تونس ٧٣.

● فأمر بالحجاب للمرأة المسلمة. قال تعالى: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ﴾(١).

● كما نهىٰ عن وسائل الإثارة، مثل:

- ترخيم الصوت أمام الأجنبي ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾(٢).

- إثارة خيال الرجل نحو ما تخفىٰ تحت حجابها من جمال وزينة، مثل:

- بعث أصوات الحلي ﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾(٣).

- وضع العطورات النفّاذة التي تلفت الرجال وتثير مشاعرهم الجنسية، قال ﷺ: «**إذا استعطرت المرأة فخرجت على القوم ليجدوا ريحها، فهي كذا وكذا**»(٤).

● كما وجَّه المسلمة أن تنأىٰ عن المجتمعات الرجالية، وأن تعد القرار في بيتها هو الأصل في حياتها.

- قال سبحانه: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾(٥).

- وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾(٦).

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

(٣) سورة النور، الآية: ٣١.

(٤) رواه الترمذي وأحمد وغيرهم. قال الترمذي: حسن صحيح. انظر: جامع الأصول ٤/ ٧٧١.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

ب ـ العمل:

هل للمسلمة أن تعمل؟

الإجابة: نعم.

ماذا تعمل؟ وفي أي ميدان؟

في أي ميدان يحقق مصلحتها ومصلحة المجتمع في إطار الضوابط الشرعية.

ربما يُتعجب؛ **كيف هذا؟**

بل كيف يُجمع بينه وبين طلب القرار في البيوت؟

الحق أنه لا بد هنا من الإطلالة على المجتمع والواقع؛ لأن هذه المشكلة ـ مشكلة المحذور الشرعي في عمل المرأة ـ لم تحدث في الإسلام إبان تنزل تشريعه، ولا في عصور المسلمين لا فكريًا ولا عمليًا، وما ثارت إلا في هذه العقود المتأخرة.

والمشكلة واقعيًا لم تَطَلْ حتى في وقتنا الحاضر المرأة العاملة في مزرعتها أو رعاية غنمها أو بيع بقولها في الريف بل كانت العاملة في هذا المجتمع تحمل قيمة أعلى من قيمة المترفات اللائي لا يعملن. إنَّما حدثت المشكلة في عمل المرأة في ظل الإطار الحضاري الجديد بملابساته الأخرى اختلاطاً، وتركاً للبيت، وتجملاً لزملاء العمل، أو زبائن المحل، ونحو ذلك فكانت هذه الملابسات عاملاً في نفور المسلمين الملتزمين بدينهم من عمل المرأة بهذه الصورة ومحاربته.

وهنا قد يُغفل عن الملابسات ويُعمم الحكم بالتحريم والمحاربة لعمل

المرأة ـ هكذا بإطلاق ـ.

وكذلك الاستشهاد بقوله سبحانه: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾(١).

والحق أن المسألة أيسر في الإسلام من المواقف المعقدّة المتأثرة بما يجيش به العصر في هذا الجانب، سواء كان تأثرها انفعالاً، بها أو ضدها.

إن الأصل في أمر المسلمة هو قرارها في البيت، وحماية نفسها من أوضار الحياة الاجتماعية خارج دارها.

لكن المجال أمامها للعمل مفتوح ـ وفق ما تقضي به المصلحة ـ وفي إطار الضوابط السلوكية التي شرعها الله سبحانه وتعالىٰ.

والمقابل في الآية الكريمة للقرار في البيوت ليس هو العمل، ولكنه كما في الآية هو تبرج الجاهلية الأولىٰ بما فيه من سفور، وصداقات بين الرجال والنساء الأجانب عنهن، ونحو ذلك مما كان جارياً في تلك الجاهلية.

ولعل ابنتي شعيب كانتا دقيقتين في تحديد منهج عمل المسلمة كما ذكر ذلك القرآن الكريم في سورة القصص في ذكر قصة موسىٰ عليه السلام، وورود مدين هارباً من مصر.

يقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾(٢).

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٣.

فها هنا:

* ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ بيان لمسوغ خروج المرأة للعمل.

* و ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الـرِّعَاءُ﴾ التزام بالضابط الشرعي لحركة المرأة خارج بيتها حشمةً واتّقاءً لمزاحمة الرجال.

٣ ـ هناك مسائل حسَّاسة بعضها أسري، وبعضها اجتماعي مما يتعلق بالمرأة، كانت وما زالت موضع سجال جدلي محتدم في الفكر الاستشراقي والفكر العربي إسلاميّه وعصرانيّه. ومن أبرز هذه المسائل:

أ ـ ميراث المرأة الذي يمثل نصف حصة الذكر.

ب ـ شهادة المرأة التي لا تعدل إلا نصف شهادة رجل.

جـ ـ جعل الطلاق بيد الرجل دون المرأة.

د ـ تحرم نكاح المسلمة لغير مسلم مع جواز نكاح المسلم للكتابية.

ولقد أحدث هذا السجال الجدلي أزمة في الفكر العربي منذ عقود من السنين وهو يتحرك تحت ضغط الثقافة الغربية، وحركات التحرر النسائية فيها، واتّهامات المستشرقين للإسلام ـ في هذه المسائل بالذات ـ بهضم حقوق المرأة وإعطاء الرجل حق الاستبداد والظلم لها.

ونتج عن هذه الأزمة تهجم علىٰ الإسلام من قبل كثير من العلمانيين العرب وغيرهم من أبناء المسلمين، ودعوة إلىٰ الخروج عليه في تشريعات الأحوال الشخصية للبلدان الإسلامية.

كما نتج عنها محاولات تأويلية تحريفية للنصوص الشرعية لتنسجم مع معطيات الفكر المعاصر من علمانيين، وحتىٰ من كتَّاب إسلاميين أيضاً.

ومن هذه المحاولات : ربط التشريع الإسلامي بالواقع التاريخي بحيث يسوغ للمسلم ـ وقد تغيرت الأوضاع الاجتماعية ـ أن يغير هذه الأحكام .

ولستُ معنيًا هنا بمداخلة ذلك السجال نقداً ، أو اتخاذاً لموقف معين في إطاره ، إنَّما يعنيني هنا أن أذكِّر بالحكم الشرعي في هذه المسائل من خلال النصوص الواردة فيها .

وأؤكد بدءاً أن هذه الأحكام الشرعية على الرغم من نزولها في بيئة معينة وظرف تاريخي محدد ، بل وبأسباب نزولٍ خاصة ، إلا أن كل ذلك لا يعني أن الزمن يحكمها فتصلح ما دام زمنها قائماً ، فإذا تغيرت أوضاعه ساغ تعطيلها .

كلا . . . إن هذه الأحكام الشرعية أبدية خالدة ؛ لأنها جاءت من عند الله سبحانه وتعالى ؛ ليحكم بها العباد ضمن دين رضيه سبحانه لعباده إلى قيام الساعة ، وكون الناس في عصر من العصور يتواطأون على عرف معين أو يستهويهم مستحدَث جديد في الأنظمة والتقاليد ، ليس معناه أن يصبح هو الأصل والمعيار الذي يحاكَم إليه الشرع .

إن الأمر بالعكس تماماً ، فالشرع بما هو تعاليم أنزلها الله لتصلح بها حياة عباده هي الأصل والمعيار .

وحياة الناس المخالفة لها تعني انحرافاً عن الحق وانتكاساً في الفطرة عن الصحيح إلى الزائف .

ومن ثم ، فالمنطق السليم ـ لدى المسلم ـ هو أن يقوّم الحياة فكراً وسلوكاً بأحكام الشريعة ، لا أن يكيّف الشريعة كي تتسق مع الواقع .

أ ـ الميراث:

يقول سبحانه: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾(١).

ويقول: ﴿وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾(٢).

ب ـ الشهادة:

يقول سبحانه: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾(٣).

جـ ـ الطلاق:

عامة آيات الطلاق الواردة في القرآن الكريم تجعله صادراً من الرجل للمرأة لا العكس:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾(٤).

﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾(٥).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾(٦).

أما النساء فهن مطلَّقات:

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٦.

(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٤٩.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾(١) .

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾(٢) .

وفي الحديث مثل ذلك، فالطلاق بيد الرجل، إلا أن يفوض الطلاق إلىٰ المرأة فإنها هنا تمتلك حق تطليق نفسها منه(٣) .

د ـ تعدد الزوجات دون تعدد الأزواج:

وذلك في قوله سبحانه : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾(٤) .

هـ ـ جواز زواج المسلم بالكتابية المحصنة:

قوله تعالىٰ : ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٥) .

هذه صرائح النصوص في أحكام شرعية تعيشها المرأة المسلمة لايسعها إذا كانت تؤمن بالله ورسوله وكتابه ودينه وترضىٰ خيرة الله لها ، أن تتجاوزها إلىٰ غيرها بعدم الالتزام بها تطبيقاً، أو سُخْطها، وسبّها، وحرج الصدر بها، أو المطالبة بإلغاء التحاكم إليها، أو الإصغاء إلىٰ من يحاربها .

---

(١) سورة البقرة، الآية : ٢٢٨ .

(٢) سورة البقرة، الآية : ٢٤١ .

(٣) انظر الأحاديث في ذلك : جامع الأصول ٧/ ٥٨٧ .

(٤) سورة النساء، الآية : ٣ .

(٥) سورة المائدة، الآية : ٥ .

وللمسلمة ـ كما للمسلم ـ أن يتأمّل في هذه التشريعات مستنبطاً حكمة الله فيها من غير أن يحكّم تعليلاته فيها.

فلعلَّ من الحِكَم مثلاً أن إعطاء المرأة نصف ميراث الرجل كون الرجل هو المكلف بالنفقة دونها.

لكن لا نبني على ذلك أنه وقد أصبحت الحياة الأسرية تتجه في بعض المجتمعات نحو الاشتراك في الكسب والإنفاق بين الرجل والمرأة، ينبغي لنا أن نحكم بتساوي المرأة مع الرجل في الميراث.

ولعلَّ من الحِكَم في تحريم نكاح المسلمة للكتابي، الخوف عليها وعلى أولادها من الارتداد عن الإسلام بتأثير زوجها بحكم ضعف المرأة.

لكن لا يبنى عليه أن المرأة وقد تعلمت وتثقفت حتى وقيت شخصيتها الفكرية والتأثيرية يفتح لها المجال لهذا الزواج . . . إلخ.

كذلك فإن تطبيق الأحكام الشرعية ـ خاصة في مباحاتها ـ رغم تعاليها على الزمان وأبديتها، يعتبر فيه الواقع المطبقة فيه.

فمثلاً ـ رغم إباحة تعدد الزوجات إلى أربع للرجل ـ إلا أنه يمكن للحاكم أن يمنع شخصاً أو أشخاصاً من التعدد لعلل مانعة.

ورغم إباحة الزواج من الكتابيات، فإنه قد تقضي ظروف سياسية أو عسكرية بأن يمنع الحاكم المسلم الزواج من الكتابيات فترة ما.

ولكن ذلك لا يعني إلغاءً لتلك الأحكام، فهي باقية ثابتة، وإن قضت المصلحة الشرعية بمنع بعض الأشخاص في بعض الظروف من استثمارها.

★ ★ ★

خاتمة

هذه إشارات حول قضية الثقافة بالنسبة للمرأة المسلمة في عصرنا الذي نعيشه، توخيت جانب الواقعية فيها، وتلمّس الهموم القائمة، وقد يُلحظ أنني أتصور نموذجاً عالياً في بنائه الثقافي، وقيامه بهذه المسئولية الثقافية.

وهذا صحيح؛ ولكنه يبقى مثالاً، والتطبيق العملي المطلوب إنَّما هو بقدر الاستطاعة والإمكان، فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

مع أن هناك طاقاتٍ كبيرة مستعدة للتدرج نحو آفاق عالية في الفهم، والعمل. وهي لذلك تبحث عن مسالك النماذج العالية، ولا بد أن نتفاءل هنا ونحن نشهد ـ بحمد الله ـ إرهاصاتٍ لظهور حركة ثقافية دعوية في محيط النساء المسلمات بعد فترات هيمنت فيها على الساحة الثقافية النسائية المنحرفاتُ عن الدين والخارجات عن حدود الفضيلة كاتبات، وشاعرات، وفنّانات.

بدأت تزدهر أبواب الأسرة في المجلات الإسلامية، بل ظهرت بعض المجلات النسائية الإسلامية التي أظهرت شخصيات دعويةً من النساء المسلمات، وعكست هذه المجلات من خلال أبواب القرَّاء فيها تلهُّفَ الفتيات المسلمات للزاد الثقافي السليم، وتفاعلهنّ الكبير معها.

وكل هذا بشائر خير، ودلائل نصر واعد للأمة الإسلامية ـ بإذن الله ـ.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه؛؛؛

★ ★ ★

فهرس المراجع

فهرس المراجع

١ ـ **الإسلام والحداثة**، عبدالمجيد الشرفي، الدار التونسية للنشر، ١٩٩١م.

٢ ـ **تأملات في سلوك الإنسان**، ألكسيس كارلل، ترجمة محمد القصاص، طبع مكتبة مصر بمصر.

٣ ـ **تفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب)**، فخر الدين الرازي، دار الفكر، ١٤١٠هـ.

٤ ـ **ثقافة الداعية**، يوسف القرضاوي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٨هـ.

٥ ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، مجد الدين بن الأثير، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط، طبع عام ١٣٨٩هـ.

٦ ـ **الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي**، مجموعة مؤلفين، مركز دراسات الوحدة العربية.

٧ ـ **حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة**، محمد صديق حسن خان، تحقيق محيي الدين مستو ومصطفى الخن، ط٢، مؤسسة الرسالة.

٨ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، شهاب الدين الألوسي، ط٤، ١٤٠٥هـ.

٩ ـ **الشخصية العربية الإسلامية والمصير المشترك**، هشام جعيط، ط١، دار الطليعة، بيروت.

١٠ ـ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ابن حجر العسقلاني، تحقيق عبدالعزيز ابن باز، المكتبة السلفية.

١١ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، نور الدين الهيثمي، طبع ١٤٠٦هـ، مكتبة المعارف، بيروت.

١٢ ـ **المرأة العربية المعاصرة إلى أين؟**، صلاح الدين جوهر، ط١، دار آفاق الغد، القاهرة.

١٣ ـ **المرأة المسلمة في تونس**، راشد الغنوشي، ط١، دار القلم بالكويت.

١٤ ـ **المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية**، مجموعة مؤلفين، مركز دراسات الوحدة العربية.

١٥ ـ **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

١٦ ـ **وجهة نظر**، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية.

★ ★ ★

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة
• مقدمة	٥
• مداخل في تعريف الثقافة .	١١
• المسألة الأولى: الواقع الثقافي للمسلمة في هذا العصر، وفيه نقطتان :	
ـ التيارات المؤثرة على المسلمة	١٧
ـ من صور التحدي الذي تواجهه المسلمة	٢١
• المسألة الثانية: ركائز البناء الثقافي للمسلمة.	٢٧
• المسألة الثالثة: المسئولية الثقافية للمسلمة، وفيه نقطتان :	
ـ عناصر المسئولية الثقافية	٤٣
ـ منهج تحقيق المسئولية الثقافية	٤٧
• المسألة الرابعة: حقيقة المرأة في المنهاج الإسلامي:	
* قضية المرأة	٥٥
* المقررات القرآنية بشأن المرأة	
ـ الجانب النظري	٦١
ـ الجانب العملي :	٦٨
١ ـ في إطار الأسرة	٦٩
٢ ـ في الإطار الاجتماعي	٧٢
٣ ـ مسائل أخرى	٧٧
• خاتمة	٨٥
• فهرس المراجع	٨٩